

سورة الشعراء

هي مكية نزلت بعد سورة الواقعة إلا آية ١٩٧ ومن ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية وعدد آياتها ٢٢٧ .

وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني اللئين مكان الإنجيل ، وأعطاني الطواسين مكان الزبور ، وفضلني بالحواميم والمفصل ، ما قرأهن نبي قبلي » .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(أ) إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر في موضوعات سالقتها .

(ب) إن كليهما قد بدئت بمدح الكتاب الكريم .

(ح) إن كليهما ختمت بإبعاد المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنَّ نَشْرَأَ نُتِرَلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا
كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدَّ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجِ
كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) .

شرح المفردات

لعل : هنا للاستفهام الذي يراد به الإنكار ، وقال العسكري : إنها للنهي ،
وباخع نفسك : أي هلكها من شدة الحزن ، قال ذو الرمة :

ألا أيها الباخع الوجد نفسه لشيء نحتته عن يديه المقادر

وأصل البَخْعُ : أن تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستبطن فقار
الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة في الذبح ، والأعناق : الجماعات ، يقال جاءت عنق
الناس : أي جماعة منهم ، وذكر : أي موعظة ، والمراد بالأنباء ما سيحل بهم من
العذاب ، وزوج : أي صنف ، والكريم من كل شيء : المرضي المحمود منه .

الإيضاح

(طسم) تقدم أن بينا أن المراد بمثل هذه الحروف المقطعة في أوائل السور
التنبيه ، فهي أشبه بالألأ ونحوها من حروف التنبيه ويا التي للنداء ، وتقرأ بأسمائها فيقال
طاء . سين . ميم .

(تلك آيات الكتاب المبين) أي هذه آيات القرآن البين الواضح الذي يفصل
بين الحق والباطل والغي والرشاد .

(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) أي أقاتل نفسك أسفا وحزنا على
ما فاتك من إسلام قومك وخوفك ألا يؤمنوا ؟

وقد يكون المعنى — لا تبخع نفسك ولا تهلكها أسى وحسرة على إيمانهم .
ونحو الآية قوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ » وقوله : « فَاعْلَمَكَ
بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم بين سبب النهي عن البخع بقوله :
(إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أي لو شئنا

أن نزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان وتقرهم عليه كما نتقنا الجبل فوق قوم موسى حتى صار كالظلة فصار جماعاتهم خاضعين منقادين لها كرها - لنعلمنا ، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان اختياريا لا قسريا كما قال : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ومن ثم نفذ قدرنا ، ومضت حكمتنا ، وقامت حججتنا ، على الخلق بإرسال الرسل إليهم ، وإتزال الكتب عليهم .

والخلاصة - إن القرآن وإن بلغ في البيان الغاية غير موصل لهم إلى الإيمان ، فلا يتبالغ في الأسى والحزن ، فإنك إن فعلت ذلك كنت كمن يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك ، فكما أن الكتاب على وضوحه لم يفدهم شيئا ، فحزرك عليهم لا يجدى نفعاً ، وقد كان في مقدورنا أن نلجئهم إلى الإيمان إجماعاً ، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان طوعاً لا كرهاً ، ومن جرأ هذا أرسلنا رسلنا بالعظات والزواجر ، وأنزلنا الكتب لتهديهم إلى سواء السبيل ، لكنهم ضلوا وأضلوا ، وما ربك بظلام للعبيد . ثم بين شدة شكيمتهم وعدم ارجوائهم عما هم عليه من الكفر والضلال بغير الآيات الملقحة تأكيداً لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم فقال :

(وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) أى وما يحيى هؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويحسدون ما أتيتهم به - ذكر من عند ربك لنذكركم به إلا أعرضوا عن استماعه وتركوا أعمال الفكر فيه ولم يوجهوا همهم إلى تدبره وفهم أسرارهِ ومغازيهِ ، وما كان أحراهم بذلك وهم أهل الذكـن والقفنـة ، ولكن طمس الله على قلوبهم فأكثرهم لا يعقلون .

وخلاصة ذلك - إنه لا يجدد لهم موعظة وتذكيراً إلا جددوا ما هو نقيض ذلك من إعراض وتكذيب واستهزاء .
ثم أكد إعراضهم بقوله :

(فقد كذبوا فسيأثمهم أبناء ما كانوا به يستهزئون) أى فقد كذب هؤلاء المشركون بالذكر الذى أتاهم من عند الله ثم انتقلوا من التكذيب إلى الاستهزاء ، وسيحل بهم عاجل العذاب وأجله فى الدنيا والآخرة كما قال : « وَكَتَعَلَّمَن نَّبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » وقال : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

ونحو الآية قوله : « يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَاثُنِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .

وقصارى ذلك — إنهم كذبوا بما جئتهم به من الحق ، وإنه سيأثمهم لاحتمال صدق ما كانوا يستهزئون به من قبلُ بلا تدبر ولا تفكير فى العاقبة .

وبعد أن بين أنهم أعرضوا عن الآيات المنزلة من عند ربهم — ذكر أنهم أعرضوا عن الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق فقال :

(أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟) أى أهدأ أهدأ على ما هم عليه من الكفر بالله وتكذيب رسوله ولم يتأملوا فى عجائب قدرته ولم ينظروا فى الأرض وكثرة ما فيها من أصناف النبات المختلفة الأشكال والألوان مما يدل على باهر القدرة وعظيم سلطان ذلك العلى الكبير ؟ .

والخلاصة — كيف اجترأوا على مخالفة الرسول وتكذيب كتابه ، وإلهم هو الذى خلق الأرض وأنبت فيها الزرع والثمار والكروم على ضروب شتى وأشكال مختلفة تبهر الناظرين وتسترعى أنظار الغافلين .

ثم بين أنهم قوم فقدوا وسائل الفكر وعمدوا التأمل والنظر فى الأكوان ، ومن ثم فهم جاحدون فقال :

(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أى إن فى ذلك الإثبات على هذه الأوضاع البديعة لدلالات لأولى الأبواب على خالقها وقدرته على البعث والنشور ، فإن من أنبت الأرض بعدد جذبها وجعل فيها الحدائق الغناء والأشجار الفيحاء لن يعجزه أن ينشر فيها الخلائق من قبورهم ، ويعيدهم سيرتهم الأولى ، ولكن أكثر

الناس غفلوا عن هذا ، فجحذوا بها وكذبوا بالله ورساله وكتبه ، وخالفوا أوامره ، واجترحوا معاصيه ، ولله در القائل :

تأمل في رياض الورد وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات على أهدابها ذهب سبيك
على قُضْب الزبرجد شهادات بأب الله ليس له شريك

والخلاصة — إن في هذا وأمثاله لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ، دالة على ما يجب الإيمان به ، ولكن ما آمن أكثرهم مع موجبات الإيمان ، بل تمادوا في الكفر والضلالة ، وانهمكوا في النفي والجهالة .

وفي هذا ما لا يخفى من تقييح حالهم ، وبيان سوء ما لهم .

ثم بشره بنصره وتأنيده وغلبته لأعدائه وإظهاره عليهم فقال :

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإن ربك أيها الرسول الكريم هو الغالب على أمره والقادر على كل ما يريد ، وسينتقم لك من هؤلاء المكذبين على تكذيبهم بك وإشراكهم بى وعبادتهم للأوثان والأصنام وهو ذو الرحمة الواسعة بمن تاب من كفره ومعصيته ، فلا يعاقبه على ما سلف من جرّمه بعد توبته بل يغفر له حَوْبَتَهُ .

والخلاصة — إن ربك عزّ كل شيء وقهره ، ورحم خلقه ، فلا يعجل بعقاب من عصاه ، بل يؤجله وينظره لعله يرجع عن غيه ، فإن تمادى أخذه أخذ عزيز مقتدر .

قصص موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ آلَ فِرْعَوْنَ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضْحِكُوا صَدْرِي

وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ تُرَبِّبْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)
وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا
وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَهَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سوء حال المشركين وشدة عنادهم وتبجح لجاحهم - سلى
رسوله صلى الله عليه وسلم عن ذلك بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم وأنه ليس
بالأوحد في الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر
الآيات ، وعظيم المعجزات ، ولم تغن الآيات والنذر؛ فحاق بالمكذبين ما كانوا به
يستهبزون ، وأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم في اليم جزاء اجتراحهم لاسيئات ،
وتكذيبهم بعد ظهور المعجزات ، وما ربك بظلام للعبيد .

الإيضاح

(وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون) أى واذا ذكر
لقومك وقت نداءه تعالى موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن ، وأمره له بالذهاب
إلى أولئك القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصى والظالمين لبني إسرائيل باستعبادهم

وذبح أبنائهم - قوم فرعون ذى الجبروت والطغيان ، والعتو والبهتان ، ليكون لهم في ذلك عبرة لو تذكروا ، فيرعوا عن غيرهم ، ويشوبوا إلى رشدهم ، حتى لا يحقيق بهم ما حاق بأولئك المكذبين من قبلهم ، إذ ابتلعهم اليم وأغرقوا جميعا .
ولاشك أن الأمر بذكر الوقت إنما هو ذكر لما جرى فيه كما أسلفنا من قبل .
ثم أتبع ذكر إرساله عليه السلام إنذارهم وتسجيل الظلم عليهم وتعجيب موسى من حالهم التي بلغت غاية الشفاعة ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله فقال :

(ألا يتقون ؟) أى قال الله لموسى : ألا يتقى هؤلاء القوم ربهم ويحذرون عاقبة بغيتهم وكفرهم به ؛ فأجاب موسى عن أمر ربه متضرعا إليه .
(قال رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) أى قال موسى : رب إني أخاف تكذيبهم إياى فيضيق صدرى تأثرا منه ولا ينطلق لسانى بأداء الرسالة ، بل يتلجلج بسبب ذلك ، كما يرى أن كثيرا من ذوى اللسان والبلاغة إذا اشتد بهم الغم وضاق منهم الصدر تلجلجت ألسنتهم حتى لا تكاد تبين عن مقصدهم .
وفى هذا تمهيد العذر فى استدعاء عون له على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه ، فإن ما ذكره ربما أوجب الإخلال بالدعوة ، وعدم إلتزام الحجة ومن ثم قال :
(فأرسل إلى هرون) أى فأرسل جبريل عليه السلام إلى هرون واجعله نبيا .
وآزرنى به واشدد به عضدى ، فيارساله تحصل أغراض الرسالة على أتم وجه .
ثم زاد سببا آخر فى الحاجة إلى طلب العون وهو خوفه أن يقتل قبل تبليغ الرسالة فقال :

(ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) أى ولهم على تبعة جرم بقتل القبطى خباز فرعون بالوكزة التي وكز بها ، فأخاف إن أنا جئتهم وحدى أن يقتلوني من جرأ ذلك - وهذا الاختصار لما بسط من القصة فى موضع آخر ؛ ومقصده عليه السلام بهذا طلب دفع بلوى قتله ، خوف فوت أداء الرسالة ونشرها بين الملأ كما هو دأب

أولى العزم من الرسل ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع مثل هذا حتى نزل قوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وفي هذا إيمان إلى أن الخوف قد يحصل من الأنبياء كما يحصل من غيرهم .
والخلاصة — إن موسى طلب من ربه أمرين : دفع الشر عنه ، وإرسال هرون معه ، فأجابه إليهما .

(قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) أى قال له : لا تخف من شيء من ذلك ، فاذهب أنت وأخوك متعاضدين إلى ما أمرتك به مؤيدين بآياتنا الدالة على صدقك ، وإني ناصر كما ومعينك عليه ، وهذا كقوله : « إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى » .
(فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل) أى فأتياه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك لتطلق سبيل بنى إسرائيل وتخليمهم وشأنهم ، ليذهبوا إلى الأرض المقدسة موطن الآباء والأجداد التي وعدنا الله بها على السنة رساه ، وكانوا قد استعبدوا أربعين سنة .

قال القرطبي : فانطلقا إلى فرعون فلم يأذن لهما سنة في الدخول عليه ، ووحد الرسول هنا ولم يشنه كما جاء في قوله : « إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ » لأن رسولا يستعمل للمفرد وغيره كما قال الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
كما يستعمل كذلك عدو وصديق كما جاء في قوله : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » .

فأجابه فرعون على وجه التقرير والازدراء وذكر أمرين فقال :

(١) (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟) أى أبعدان ربيناك في بيوتنا ولم نقتلك في جملة من قتلنا ، وأنعمنا عليك بنعمنا رذحا من الزمن تقابل الإحسان بكفران النعمة ، وتواجهنا بمثل تلك المقالة ؟ .

روى أنه لبث فيهم ثمانى عشرة سنة ، وقيل ثلاثين سنة .

(٢) (وفعلت فعلتكم التي فعلت وأنت من الكافرين) أى وقتلت ذلك

القبطي الذي وكزته وهو من خواصي ، فكنت من الجاحدين لنعمتي عليك من التريبة والإحسان إليك .

وخلاصة ما سلف — إنه عدد نعماء عليه أولا من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وهو من خواصه ، وهو بهذا أيضا يكون قد كفر نعمته وجحد فضله .

فأجاب موسى عن الأمر الثاني وترك أمر التريبة لأنها معلومة مشهورة ، ولا دخل لها في توجيه الرسالة إليه ، فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم ، سواء أكانوا أنعموا عليه أم لم يُنعموا .

(قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) أي قال موسى مجيبا فرعون : فعلت هذه الفعلة التي ذكرت وهي قتل القبطي وأنا إذ ذاك من الجاهلين بأن وكزتي تأتي على نفسه ، فأني إنما تعمدت الوكر للتأديب ، فأدى ذلك إلى القتل .

(ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعاني من المرسلين) أي فخرجت هاربا منكم حين توقعتم مكروها يصيبني حين قيل لي : « **إِنَّ الْمَلَأَ يَا إِيمْرُونَ بِكَ لِيَمَقْتُلُوكَ** » فوهب لي ربي علما بالأشياء على وجه الصواب وجعاني من المرسلين من قبله لهداية عباده وإرشادهم إلى النجاة من العذاب .

وخلاصة ما قال — إن القتل الذي توخيت به لم يكن مقصودا لي ، بل كنت أريد بوكزه التأديب فحسب ، فلا أستحق التخويف الذي أوجب فراري ، وإنه أتم أسأتم إلي فقد أحسن إلي ربي فوهب لي فهم الأمور على حقائقها وجعاني من زمرة عباده المخلصين .

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة فقال :

(وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدا ، وتمن من النعمة بمعنى الإيناع : أي وما أحسنت إلي وريبتني إلا وقد أسأت إلي بني إسرائيل جملة فجعلتهم عبيدا وخرما تصرفهم في أعمالك وأعمال رعييتك الشاقة .

وخلصة ذلك — أوفيني إحسانك إلى رجل منهم بما أسأمت به إلى مجموعهم؟ فهو ليس بشيء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع، وكأنه قال: إن هذا ليس بنعمة، لأن الواجب عليك ألا تقبلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي، فكيف تذكر إحسانك إلى علي الخصوص.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لَنْ حَوْلَهُ إِلَّا نَسْتَمِعُونَ (٢٥)
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ آتِيَنَّكُمْ مِنْ غَيْرِي لِأَجْمَلْتُمْ مِنْ
الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكُمْ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَآتِ بِهِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١).

الإيضاح

لما دخل موسى وهرون على فرعون وقالاه : إنا رسولا رب العالمين أرسلنا إليك هدايتك إلى الحق وإرشادك إلى طريق الرشده ، وغلباه بالحجة رجع إلى معارضة موسى في قوله : « رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(قال فرعون وما رب العالمين ؟) أى قال لموسى : إنك تدعى أنك رسول من رب العالمين فما هو ؟ إذ كان قد قال لقومه : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » . فأجابه موسى عن سؤاله :

(قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) أى رب العالمين هو خالق العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعا.

السفلى وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوان ونبات وما بين ذلك من هواء وطير ، إن كانت لكم قلوب موفقة وأبصار نافذة .

حينئذ عجب فرعون من كلام موسى والتفت إلى الملائكة حوله معجبا لهم من ذلك المقال .

(قال لمن حوله ألا تسمعون ؟) أى التفت فرعون إلى الملائكة والرؤساء من حوله وقال لهم على سبيل التهم والاستهزاء : ألا تعجبون من مقالته وزعمه أن لكم إلهاً غيرى ؟ .

ثم زاد موسى وصف إلههم إيضاحاً وبيانا .

(قال ربكم ورب آبائكم الأولين) أى إنه هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم .

وقد انتقل بهم موسى من النظر فى الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر فى الأنفس وما فيها من عجيب الصنع ، فإن التناسل المستمر فى النبات والحيوان والإنسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر فى الآفاق .

ولما لم يستطع رداً لما جاء به أورد ما يشكك قومه فى حسن تقديره للأمور وفهمه لما يقول :

(قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى قال فرعون لقومه : إن رسولكم لا عقل له ، إذ يقول قولاً لا يعرفه ولا تفهمه ، فهو يدعى أن نعمة إلهه غيرى .

ثم وصف موسى الإله بأنه خالق الأكوان ، ورب الزمان والمكان .

(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) أى قال موسى : إن ربكم هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع انتظام مداراتها وتغير المشارق والمغارب كل يوم ، إن كان لكم عقول تفقهون بها ما يقال لكم وتسمعون بها ما تسمعون ، إذ فى كل

ذلك أدلة على أن هناك إلهاً مصوراً صور هذه العوالم كلها وأبدعها وزينها ورتبها ونظمها على أحسن النظم .

وقد لا ينهم أولًا وعاملهم بالرفق حيث قال لهم : إن كنتم موقنين ، ثم لما رأى شدة شكومتهم خاشنهم وأغلظ لهم في الرد وعارضهم بمثل مقالهم بقوله إن كنتم تعقلون ، لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه .

ولما قامت الحجة على فرعون عدل إلى القهر واستعمال القوة ولبس لموسى جلد النمر .

(قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) أى قال : لأجعلنك فى زمرة الذين فى سجونى على ما تعلم من فظاعة أحوالها ، وشديد أهوالها ، وكانت سجونها أشد من القتل ، لأنه إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت ، وكان يطرحه فى هوة عميقة فى مكان تحت الأرض وحده ، وفى توعده بالسجن ضعف منه لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعاً شديداً .

وحينئذ اضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظهيرياً ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات .

(قال أولو جئتكم بشيء مبين ؟) أى أتفعل هذا ولو جئتكم بحجة بينة على صدق دعواى وهى المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته ، وعلى صدق دعوى من ظهرت على يديه .

وحين سمع فرعون هذا الكلام من موسى .

(قال فأت به إن كنت من الصادقين) فى دعوى الرسالة ، فإن من يدعى النبوة لا بد له من حجة على صدق ما يدعى ، وقد أمره بذلك ظناً منه أنه يقدر على معارضته .

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
 لِلنَّاطِرِينَ (٣٣) قَالَ لَمَسَلِ لِحْوَلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ
 يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ
 وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تَوَكُّبُ بِكُلِّ سَجَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧).

شرح المفردات

مبين : أى ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل كما يفعل السحرة ، الملائ :
 أشراف القوم ، عليم : أى خبير بفن السحر حاذق فى تلك الصنعة ، فإذا تأمرون ؟
 أى فبم تشيرون ، أرجه وأخاه : أى أخر أمرها ولا تباغتها بالقتل خيفة الفتنة ،
 حاشرين : أى اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة .

الإيضاح

(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) أى فبعد أن قال له فرعون مقالته التى
 عصاه فإذا هي ثعبان واضح لا لبس فيه ، ولا تخييل ولا تمويه ، وقد روى أنها لما
 صارت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، فقال : بالذى
 أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها موسى فمادت عصا كما كانت .

وقد جاء فى آية أخرى : « كَانَتْهَا جَانٌّ » والجنان الصغير من الحيات ، تشبيهاً
 لها به من جرأ الخفة والسرعة .

ولما أتى موسى بهذه الآية قال له فرعون : هل هناك غيرها ؟ قال نعم .

(ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) أى وأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها
 فإذا هي تضىء الوادى من شدة نورها ، وكأنها قلقة قر ، قال ابن عباس : أخرج
 موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع للناظرين ، لها شعاع كشعاع الشمس يكاد
 يعشى الأبصار ويسد الأفق .

ولما رأى فرعون هذه الحجج بادر بالتكذيب والعداوة وذكر لأشرف قومه أموراً ثلاثة :

(١) (قال الملأ حوله إن هذا ساحر عليم) أى قال لرؤساء دولته وأشرف قومه الذين حوله ليروِّج عليهم بطلان ما يدعيه موسى : إن هذا الرجل لبارع فى السحر حاذق فى الشعوذة ، ومراده من هذا أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر لامن وادى المعجزات .

ثم هيَّجهم وحرَّضهم على مخالفته والكفر به والتنفير منه بقوله :

(٢) (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر ، فيكثر أعوانه وأتباعه ، ويقلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم . .

(٣) (فماذا تأمرون) أى فأشيروا على ماذا أصنع ؟ وبم أداقعه عما يريد ؟ ومثل هذا القول يوجب جذب القلوب والتضافر فى مكافحة العدو والتغلب عليه . جهد المستطاع .

قال أبو السعود : بهر سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه ، والامثال بأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلاً بالرأى والتدبير ، وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

(قالوا أرجه وأخاه وابتعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) أى قالوا : أخرج البت فى أمرها ولا تعاجلها بالعقوبة حتى تجمع لهما من مدائن مملكته ، وأقاليم دولته ، كل سحار عليم ، ثم تقابلهم به وجها لوجه ويأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة وقرعت الدليل بمثله ، ويكون لك النصر والتأييد عليه ، وتجذب قلوب الشعب إليك .

وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له ، ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه للناس في وضوح النهار جورة .

روى أن فرعون أراد قتله فقال له الملائكة : لا تفعل . فإنك إن قتلته أدخلت على الناس شبهة في أمره ، وأشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون له كل سحار علم ، فلما منهم أنهم إذا كثروا غلبوه على أمره ، وتم لفرعون الغلب . فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

فَجَمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَسْمِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَأَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجْرًا إِنْ كُنَّا تُحَنُّ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَتَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَتَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَاصْبِرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) .

شرح المفردات

المِيقَاتِ : ما وقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام ، واليوم المعلوم : هو يوم الزينة الذى حدده موسى فى قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس

ضحى ، وعزة فرعون : أى قوته التى يتبع بها من الضيم ، تلقف : أى تتلعق بسرعة ، يأفكون : أى يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرم ، من خلاف : أى يقطع الأيادى اليمنى والأرجل اليسرى ، لاضير : أى لاضرر علينا فيما ذكرت ، منقلبون : أى راجعون .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه هذه المناظرة بين موسى عليه السلام والقبط فى سورة الأعراف وسورة طه وفى هذه السورة .

وخلصتها — إن فرعون وقومه أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وذلك شأن الإيمان والكفر والحق والباطل ما تقابلا إلا غلب الإيمان الكفر : « بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَآلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » ومن ثم لما جاء السحرة وقد جمعهم من أقاليم مصر العليا وكانوا أبرع الناس فى فن السحر وأشدهم خداعا وتخيلة ، وكانوا جمعا كثيرا وجما غفيرا أحضروا مجلس فرعون ، فطلبوا منه الأجر إن هم غلبوا ، فأجابهم إلى ماطلبوا ، وزادهم عليه أن سيجعلهم من بطانته ومن المقر بين إليه ، ولكن المناظرة انتهت بغلبة موسى لهم وهزيمة من استنصرهم ، وإيمانهم بموسى ، وحينئذ عاد إلى المكابرة والعناد ، وشرع يتهدد السحرة ويتوعدهم ويقول : (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) ولكن ذلك لم يزدهم إلا إيمانا وتسليما ، لعلمهم ما جهله قومهم من أن هذا لا يصدر عن بشر إلا إذا أيدته الله وجعله حجة على صدق ما يدعى ، ومن ثمة قالوا له بعد أن توعدهم بقطع الأيدى والأرجل : إن ذلك لا يضيرنا ، وإن المرجع إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وإنا نرجو أن يغفر لنا ربنا خطايانا ، لأننا سبقنا قومنا من القبط إلى الإيمان ، ويروى أنه قتلهم جميعا .

الإيضاح

(فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) أى إنهم بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت فى أمر موسى ، وبأن من الخير له أن يجمع السحرة ، ليظهر عند حضورهم فساد قوله - رضى بما أشاروا به واستقر عليه الرأى وأحب أن تقع المناظرة فى يوم عيد لهم ، لتكون بمحضر الجحيم الغفير من الناس ، ويتم الله نوره ويظهر الحق على الباطل باطنه وفضله .

(وقيل للناس هل أتمم مجتمعون) أى وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة ما يكون من الجانبين : هل أتمم مجتمعون فى ذلك الميقات لتروا ما سيكون فى ذلك اليوم المشهود ، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وطلبا أن يكون يجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده ، لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة ، وحجة الكافرين هى الداحضة ، وفى ظهور حجة الله بجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين ، وقهر للمبطلين .

(لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) أى إنا نرجو أن يكون لهم الغلبة فنتابعهم ونستمر على دينهم ولا نتبع دين موسى .

(فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن القرين) أى فلما جاء السحرة مجلس فرعون طلبوا منه الإحسان ببذل المال والتقرب إليه إن هم غلبوا ، فأجابهم إلى ما طلبوا وزاد على هذا أن وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه وخاصة بطانته .

بعدئذ عادوا إلى مقام المناظرة وقالوا يا موسى إما أنت تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .

(قال لهم موسى ألقوا ما أتمم ملقون . فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) أى قال لهم موسى ألقوا ما تريدون إلقاءه مما يكون حجة لكم

على إبطال ما أدعيه من المعجزات ، فألقوا ما معهم من الحبال والعصى وقد كانت مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة به ، وقالوا بقوة فرعون وجبروته : إنا لنحن الغالبون ، فلما حمت حرارة الشمس اشتدت حركتها وصارت كأنها حيات تدب من كل جانب ، وسجروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وجاء في سورة طه : « فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

وقد استفرغوا الوسع وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية بل فوقها وأن النصر قد كتب لهم .

(فآلقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون) أى وحين ألقى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقبلون صورته وحاله الأولى بتمويههم وتخيل الحبال والعصى أنها حيات تسعى .

وجاء في آية أخرى : « فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وقد قامت الحجة لموسى عليهم واستبان لهم أن هذا ليس من متناول أيديهم . (فآلقى السحرة ساجدين) أى نغروا سجدا لله ، لأنهم قد علموا أن هذا الذى فعلوه هو منتهى التخيل السحري ، فلما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا ، وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى ، حينئذ خروا سجدا لله القوى القاهر فوق عباده .

وفى التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يمانكوا أنفسهم من الدهش حتى كأنهم أخذوا فطرحوا .

ثم فاهوا بما يجيش فى صدورهم وتنطوى عليه جوانحهم .

(قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون) أى آمنا برب العالمين الذى دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون .

وقى هذا إيماء إلى عزل فرعون عن الربوبية ، وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله على يدي موسى وهرون من المعجزات .

وبعد أن حصحص الحق ، ووضح الصبح لذي عينين ، لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدد ويتوعد ، ولكن ذلك لم يجدي في السحرة شيئا ، ولم يزد هم إلا إيمانا وتسليما ، إذ كان حجاب الكفر قد انكشف ، واستبان لهم نور الحق ، وعلموا ما جهل قومهم وأن القرة التي تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها وجعلها دليلا على صدق ما يدعى .

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟) أى أتؤمنون به قبل أن تستأذنونى وقد كان ينبغى ذلك ، وألا تفتاتوا علىّ فإنى أنا الحاكم المطاع ؟ .

ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ، ليعمى على العامة ويصرفهم عن وجه الحق فقال :

(إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) فأنتم فعلتم ذلك عن مواطاة بينكم وبينه . ولا شك أن هذا تضليل لقومه ، ومكابرة ظاهرة البطالان ، فإنهم لم يجتهدوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون هو كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ . ثم توعدهم فقال :

(فلسوف تعامون) وبال ما فعلتم وسوء عاقبة ما اجترحتم . ثم بين ذلك بقوله :

(لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين) أى لأقطعنّ اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى ، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك .

فأجابه غير مكترئين بقوله ، ولا عابئين بتهديده ، بأمرين فى كل منهما دليل على اطمئنان النفس وبرد اليقين :

(١) (قالوا لاضرير إنا إلى ربنا منقلبون) أى قالوا لاضرر علينا فى تنفيذ وعيدك ، ولا نبالى به لأن كل حى لا محالة ماتت .

ومن لم يميت بالسيوف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد ونحو ذلك قول على كرم الله وجهه : لا أبالى أوقعت على الموت أم وقع الموت على .

(٢) (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ؟) أى ولأننا نؤمل أن يغفر لنا ربنا ما فعلنا من السحر واعتقدها من الكفر من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا الموقف ، انقيادا للحق ، وإعراضا عن زخرف الدنيا وزينتها .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِيَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بنى إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتَيْنَاهُمُوهُمْ مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) .

شرح المفردات

أسرى : سار ليلاً ، متبعون : أى يتبعكم فرعون وجنوده ، والشردمة الطائفة القليلة من الناس ، غائظون : أى فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا ، حاذرون : أى من دأبنا بالحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، كنوز : أى أموال كنزوها وخزنها فى باطن الأرض ، ومقام كريم : أى قصور عالية ودور فخمة ، أورثناها : أى ملكناها لهم تمليك الميراث ، مشرقين : أى داخلين فى وقت الشروق ، تراءى الجمعان : أى تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، لمدركون : أى سيدركوننا ويلحقون بنا ، كلا : أى لن يدركوكم ، انفلق : انشق ، الفرق : الجزء المنفرد منه ، والطود : الجبل ، سوارفنا : أى قربنا . وثم : أى هناك ، آية : أى لعظة وعبرة توجب الإيمان بموسى .

المعنى الجملى

أقام موسى بين ظهرائى المصريين يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات ، فلم يزدحم ذلك إلا اعتوا واستكبارا ، يرشد إلى ذلك قوله فى سورة الأعراف : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ » الآيات ، فأمره الله أن يخرج بنى إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل ما أمر به وخرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون خليفاً كثيرة .

فلما وصل علم ذلك إلى فرعون أرسل فى المداين حاشرين يجمعون له الجند ، ثم قوَّى نفسه ونفس أصحابه بأن وصف بنى إسرائيل بالقلّة وأن أفعالهم تضيق بها الصدور وتوجب الغيظ ، وهو مستعد أن يبدهم بما لديه من قوة وجند ، ثم تبعهم هو وجنوده وقت الشروق ، فلما تقارب الجمعان خاف أصحاب موسى وقالوا إن فرعون وقومه لاحقون بنا لاجمالة ، فقال لهم موسى لن يدركوكم وإن ربى سيهدىنى إلى طريق اللجاة ؛ وحينئذ أوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فاضرب فانفلق حتى صار شكل الماء المتراكم كالجبل العظيم ، فساز هو وقومه فى اليبس حتى جاوزوا

البحر من الجانب الآخر ، ودخل فرعون وجنوده من الجانب الأول فانطبق البحر عليهم وأغرقوا أجمعون .

وهذه آية كان من حقها أن توجب الاعتبار والبظة فيؤمن به من بقى من المصريين لكنهم لم يفعلوا .

الإيضاح

(وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون) أى وأوحينا إليه أن سر بعبادى ليلا حتى إذا اتبعوكم مصيحين كان لكم تقدم عليهم فلا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر ، بل يكونون على إثركم حين تلجونه فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فيغرقون .

وقد جاء فى سفر الخروج من التوراة فى الإصحاح الحادى عشر : أن الرب أمر أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبها أمتعة ذهب وأمتعة فضة ، وأن الله سيميت كل بكر فى أرض مصر من الإنسان والحيوان ، وأمرهم أن يذبح أهل كل بيت شاة فى اليوم الرابع عشر من شهر الخروج ، وأن ياطخوا القاتنتين والعتبة العليا من الدار ، وأن يأكلوا اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير ، وأمرهم أن يأكلوا بمجلة ، ويأكلوا الرأس مع الأكارع والجوف ، وهذا هو (فضح الرب) وهذا الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل حتى يحفظ كل بكر منهم ويتخطاهم الموت إلى أبكار المصريين ، ويكون أكل الفطائر سبعة أيام ، ويكون هذا فريضة أبدية تذكر بالخرج من مصر من يوم ١٤ من شهر أيبب إلى ٢١ من هذا الشهر كل سنة . وهكذا أمر موسى قومه بذلك ففعلوا كل هذا ونجا أولادهم وصار ذلك سنة أبدية . ولما مات الأبكار من الإنسان والحيوان فى جميع بلاد مصر فى نصف الليل اشتغل الناس بالأموات ، وأخذ بنو إسرائيل غنمهم وبقرهم وأخذوا عجيزهم قبل أن يخنثروا ، ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم ، وفعل بنو إسرائيل ما أمرهم

الرب وارتحلوا من رعسيس إلى سكوت وكانوا ستمائة ألف ماش من الرجال ما عدا الأولاد، وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز مَلَّةً (فطيرا) اه .

وكانت إقامة بنى إسرائيل في مصر ٤٣٠ سنة ، وليلة الخروج هي عيد الفصح عندهم إلى الأبد .

(فأرسل فرعون في المدائن حاشرين) أى فلما أسرى بهم موسى وأخبر فرعون بما صنعوا ، أرسل في مدائن مصر رجالا من حرسه ليجمعوا الجند فيتبعوهم ويردوهم إلى مصر ويعذبوهم أشد التعذيب على ما فعلوا .

ثم قوى فرعون جنده في انتفاء آثارهم بأمور :

(ا) (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) فيسهل اقتناؤهم وإرجاعهم وكبح جماحهم

في الزمن الوجيز .

(ب) (وإنهم لنا لغائظون) أى وإنهم بين آونة وأخرى يصدر منهم ما يخل بالأمن ويحدثون الشغب والاضطراب في البلاد - إلى أنهم ذهبوا بأموالنا التي استعاروها .

(ح) (وإنا لجمع حاذرون) أى وإن لنا أن نحذر عاقبة أمرهم قبل أن

يستفحل خطبهم ويصعب رأب صدعهم ، ونحن قوم من ذابنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور .

والخلاصة - إنه أشار أولا إلى عدم الموانع التي تمنع اتباعهم من قلة وجود

الشوكة لهم ، ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم لنا ، ووجوب التيقظ في شأنهم حثا منه عليه .

وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن ، لثلايظن به ما يكسر من قهره وسلطانه .

وخلاصة مقاله - إن هؤلاء عدد لا يعبأ به ، وإن في مقدورنا أن نبيدهم

بأهون الوسائل ، ولا خوف منهم إذا نحن اتبعنا آثارهم ورددناهم على أعقابهم

خاسئين، حتى لا يعودوا كرة أخرى إلى الإخلال بالأمن والمهرج والمرج والاضطراب في البلاد، وهذا ما يقتضيه الحزم واليقظة في الأمور.

والذى نجزم به أن بنى إسرائيل كانوا أقل من جند فرعون، لكننا لانجزم بعدد معين، وما فى كتب التاريخ والتوراة مبالغات يصعب تصديقها ولا ينبغى التعويل عليها، فخير لنا ألا نشغل أنفسنا باستقصاء تفاصيلها، وقد فند ابن خلدون فى مقدمة تاريخه هذه الروايات وأبان ما فيها من مغالاة لا يقبلها العقل ولا تثبت أمام البحث العلمى الصحيح.

وقد جازى الله فرعون وجنوده بما أرادوا أن يجازوا به بنى إسرائيل فأهلكوا جميعاً كما قال:

(فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك) أى فأخرجناهم من النعيم إلى الجحيم وتركوا المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والملك والجاه العظيم الذى لم يسمع بمثله، وقد كان الأمر حقاً كما قلنا.

ثم بين ما آل إليه أمر بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر:

(وأورثناها بنى إسرائيل) أى وملسنا بنى إسرائيل جنات وعيوناً مماثلة لها فى أرض الميعاد التى ساروا إليها، وفى هذا بيان لأن حالهم تحول من الاستعباد والرق إلى الترف والنعيم فى الجنات والعيون والمقام الكريم.

ونحو الآية قوله: « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » .

(فأتبعوهم مشرقين) أى فخرجوا من مصر فى حفل عظيم وجمع كثير من أولى الحل والعقد من الأمراء والوزراء والرؤساء والجند، فوصلوا إليهم حين شروق الشمس.

ثم ذكر ما عرا بنى إسرائيل من الخوف حين رؤيتهم فرعون وقومه.

(فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أى فلما رأى كل من

الفريقين صاحبه قال بنو إسرائيل : إن فرعون وجنوده سيلحقوننا ويقتلوننا ، وكانوا قد قالوا لموسى من قبل : إنا قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، وكانوا يذبحون أبناءنا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا يدركوننا ويقتلوننا .

والخلاصة — إنا لمنا بمون وسنهلك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد ؛ لأننا قد انتهى بنا السير إلى سيف البحر (ساحله) وقد أدركنا فرعون وجنوده .
فأجابهم موسى وطمانهم وقوى نفوسهم .

(قال كلا إن معى ربى سيهدين) أى قال لهم موسى : إنه لن يصلحكم شئ مما تمذرون ، فإن الله هو الذى أمرنى أن أسير بكم إلى هنا ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ، فهو :

(١) سيهدينى إلى طريق النجاة والخلص .

(٢) سينصرنى عليهم ويتكفل بمعونتى .

ثم ذكر سبحانه كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه فقال :

(وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم) أى وأوحينا إليه أن اضرب بعصاك البحر فاضرب فانقلب فكان كل قطعة من الماء كالجبل العالى وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق وصار فيه طاقات ينظر منها بعضهم إلى بعض ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبسا كوجه الأرض كما قال فى آية أخرى : « فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى » .

(وأزلنا ثمم الآخرين) أى وفر بنا فرعون وجنوده من البحر وأدبناهم منه .

(وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين) أى وأنجينا موسى

وبنى إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم ، فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ولم يبق منهم أحدا .

والتخلاصة — إنه لما خرج أصحاب موسى وتنام أصحاب فرعون انطبق عليهم البحر فأغرقهم جميعاً .

(إن في ذلك لآية) أى إن فى الذى حدث فى البحر لمعة دالة على قدرته تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام ، من حيث كان معجزة له ، وتحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم بين أنهم لم تُجدّم الآيات والنذر شيئاً .

(وما كان أكثرهم مؤمنين) أى وإن أكثرهم لم يؤمنوا مع ما رأوا من الآيات العظام والمعجزات الباهرات .

وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فقد كان يغم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات على يديه ، فنتبه بهذا الذكر إلى أن له أسوة بموسى عليه السلام ، فإن ما ظهر على يديه من المعجزات التى تبهر العقول لم يمنع من تكذيب أكثر القبط له وكفرهم به مع ما شاهدوه فى البحر وغيره ، وتكذيب بنى إسرائيل فإنهم بعد أن نجوا عبدوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى ترى الله جهرة .

ثم توعدهم وقال :

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإن ربك هو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

وفى هذا بشارة لنبيه بأن النصر سيكتب له ، والفوز سيكون حليفه كما قال :
« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ آبَاءَنَا فَانظُرْ لَهُمَا عَمَّا كَفِينِ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ نَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢)

أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ
الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ
(٨٠) وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْعَمُنِي أَنْ يَقْدِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ
الَّذِينَ (٨٢) .

المعنى الجملى

لما ذكر في أول السورة شدة حزنه على كفر قومه وعدم استجابتهم دعوته ،
ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون في ذلك تسلية له ، وليعلم أنه ليس بيدع
في الرسل وأن قومه ليسوا بأول الأمم عنادا واستكبارا ، فقد أتى موسى بياهر
المعجزات وعظيم الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا القليل ، ولم يؤمن به من المصريين
إلا النذر اليسير - أردف ذلك بقصص إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الرحمن وكليم الله ،
ليعلم أن حزنه لسكفران قومه كان أشد ، وآلامه كانت أعض ، فهو كان يرى أن آباءه
وقومه صائررون إلى النار ، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم ، وقد أكثر حجاجهم حتى
حجّهم ولم يجد ذلك فيهم شيئا ، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد ،
وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لا تغنى عنهم شيئا ، فهي لا تسمع دعاءهم
« وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ » ولو سمعت لم تغن عنهم شيئا . ثم ذكر لهم صفات
الرب الذي ينبغي أن يعبد وفصلها أتم التفصيل .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟) أى واتل على أمتك
أخبار إبراهيم إمام الخنفاء ليعتدوا به فى الإخلاص والتوكل على الله وعبادته وحده

لاشريك له والتبرى من الشرك وأهله ، وقد أوتى الرشد من صغره ، فهو من حين نشأ وترعرع أنكر على قومه عبادة الأصنام فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ وهو مشاهد راء له ، ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة في شرع ولا عقل .

روى أن أصنامهم كانت من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب ، فأجابوه إجابة المفتخر بما يفعل ، المزهو بما يجمعيل ما يصنع :

(قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) أى قالوا نعبد الأصنام ونقيم على عبادتها طوال ليلتنا ونهارنا . وبعد أن أوحىوا له طريقتهم نبههم إلى فساد معتقدهم بسوق الدليل الذى يرشد إلى بطلانه .

(قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون ؟) أى قال لهم :

هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم فيستجيبوا لكم ببذل معونة أو دفع مضرة ؟ ذلك أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجئ إليه في المسألة ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له ببذل المعونة من جلب نفع أو دفع ضرر ، فإذا كان ما تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ، ولو عرف ما استطاع مد يد المعونة ، فكيف بكم تستسيغون لأنفسكم أن تعبدوا ما هذه صفته ؟

وحيثما فلجت حجة إبراهيم ولم يجدوا مقالا يقولونه وكأنا ألقمهم حجرا ، فعدلوا عن الحجاج إلى اللجاج ، وتقليد الآباء والأجداد ، وتلك هى حجة العاجز المغلوب على أمره ، الذى أظلم وجه الحق أمامه ، ولم يهتد لحجة ولا دليل .

فزاد في تقريرهم وتوبيخهم فقال :

(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال : أفأرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) أى إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير كما تدعون وتستطيع أن تضر وتنفع فلتخلص إلى بالمساءة فإنى عدو لها لا أبالى بها ولا أبه بشأنها ، ولكن رب العالمين هو ولي فى الدنيا والآخرة ولا يزال مفضلا على فيهما .

ونحو هذا قول نوح عليه السلام « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » وقول هود :

«إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ بِمَا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ثم وصف رب العالمين سبحانه بأوصاف استحق لأجلها أن يعبد :

(١) (الذي خلقتي فهو يهدين) أى هو الخالق الذى خلقتى وصورنى فأحسن صورتى ، وهو الذى يهدينى إلى كل ما يهمنى من أمور المعاش والمعاد هداية تتجدد على جهة الدوام والاستمرار .

(٢) (والذى هو يطعمنى ويسقئ) أى وهو رازق بما يسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء فأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه ما خلق من الأنعام والأناسى .

(٣) (وإذا مرضت فهو يشفين) أى وهو الذى ينعم على بالشفاء إذا حصل لى مرض ، وأضاف المرض إلى نفسه وهو حادث بقدرته ربه أدبا منه مع ربه كما قالت الجن «وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا» .
والخلاصة — إنى إذا مرضت لا يقدر على شفاى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إلى ذلك .

(٤) (والذى يميتنى ثم يحيين) أى وهو الذى يحيينى ويميتنى ولا يقدر على ذلك أحد إلا هو ، فهو الذى يبدئ ويعيد ، وقد يكون المراد بالإحياء البعث بعد الموت ، ويؤيده عطفه بتم لاتساع الوقت بين الإماتة والإحياء .

(٥) (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) أى وهو الذى لا يقدر على غفران الذنوب فى الآخرة إلا هو كما قال : « وَمَنْ يَغْفِرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ » وسمى إبراهيم ما صدر منه من عمل هو خلاف الأولى خطيئة ، استعظاما له .

وخلاصة مقاله — إن جميع النعم التى يتمتع بها المرء من النشأة الأولى إلى آخر الدهر هى من الله وحده ، ولا قدرة لأصنامكم على شىء منها .

وفي صحيح مسلم عن عائشة « قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويظعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِي لِأَنِّي إِنِّي كَانَتْ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) .

شرح المفردات

الحكم: هو العلم بالخير والعمل به ، والحقوق بالصالحين يراد به التوفيق للأعمال التي توصل إلى الانتظام في زمرة السكاملين المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، لسان صدق: أى ذكرًا جميلاً بين الناس بتوفيقى إلى الطريق الحسنة حتى يقتدى به الناس من بعدى ، وهذا هو الحياة الثانية كما قال : قد مات قوم وهم في الناس أحياء . من ورثة جنة النعيم : أى من الذين يتمتعون بالجنة وسعادتها فيكون ذلك غنيمة لهم كما يتمتع الناس بالميراث في الدنيا ، والخزى : الهوان ، والقلب السليم : هو البعيد عن الكفر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة .

المعنى الجملى

بعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما أثنى عليه - ذكر مسأته ودعائه إياه بما ذكره كما هو دأب من يشتغل بالدعاء ، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه تعالى وذكر عظمته وكبريائه ، ليستغرق في معرفة ربه ومحبته وبصير أقرب شبيهاً بالملائكة الذين

يعبدون الله بالليل والنهار لا يفترون ، وبذا يستنير قلبه إلى ما هو أرفق به في دينه ودينه ، وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدى إلى ما يريد ، ومن ثم جاء في الأثر حكائية عن الله تعالى : « من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

الإيضاح

دعا إبراهيم ربه أن يؤتیه من فضله أجل الأخلاق وأكل الآداب ، فطلب إليه أموراً هي :

(١) (رب هب لي حكماً) أى ائتنى معرفة بك وبصفانك ، ومعرفة للحق لأعمل به .

(٢) (وألحقني بالصالحين) أى ووقفنى للعمل فى طاعتك ، لأنتظم فى سلك المقربين إليك ، المطيعين لك ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال : « وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه : « اللهم أحينا مسالمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبذولين » .

(٣) (واجعل لى لسان صدق فى الآخريين) أى خلّد ذكرى الجليل فى الدنيا بتوفيقى لصالح العمل ، فأكون قدوة لمن بعدى إلى يوم القيامة ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال : « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » .

ومن ثم لانرى أمة إلا محبة لإبراهيم وتدعى أنها على ملته ، وقد جاء من ذريته كلمة الأنبياء وأولو العزم منهم .

وختم ذلك بمجدد دينه وداعية الناس إلى التوحيد وهو محمد صلى الله عليه وسلم .
وبعد أن طلب سعادة الدنيا طلب ثواب الآخرة فقال :

(٤) (واجعلني من ورثة جنة النعيم) أى واجعلني من يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها كما يتمتع المالك بما يملكه ميراثا ويثول إليه أمره من شئون الدنيا .
وبعد أن طلب السعادة الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأقرب الناس إليه وهو أبوه فقال :

(٥) (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) أى واغفر له ذنوبه ، إنه كان ضالا عن طريق الهدى ، وهذه الدعوة وفاء بما وعده من قبل كما جاء في آية أخرى :
« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » .

ثم طلب من ربه عدم خزيه وهوانه يوم القيامة فقال :
(٦) (ولا تخزني يوم يبعثون) أى ولا تخزني بمعاتبتى على ما فرطت ، أو بنقص مرتبتى عن بعض الوارثين .

ثم بين حال هذا اليوم وما فيه من شديد الأهوال فقال :
(يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) أى يوم لا يلقى المرء من عذاب الله المال ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعا ، ولكن ينفعه أن يجيء خالصا من الذنوب وأدرانها ، وحب الدنيا وشهواتها ، وخص الابن بالذكر لأنه أولى القرابة بالدفع والنتفع ، فإذا لم ينفع غيره من القرابة أولى .

قال النسفي : وما أحسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين ، حيث سألمهم أو لا عما يعبدون سؤال مقرر لاستفهام ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تنضر ولا تنفع ولا تسمع ، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله تعالى ، فعظم شأنه ، وعدد نعمه من حين إنشائه إلى وقت وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهاج الأدب ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعذابه وما يفعل المشركون

يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكفرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا اهـ .

أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن ثوبان قال : لما نزلت : « وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » الآية .

قال بعض أصحاب رسول الله لو علمنا أى المال خير اتخذناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضله لسان ذاك ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه » .

وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرُزَّتِ الْجَعِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ آيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) قَالُوا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) .

شرح المفردات

أزلفت : أى قربت ، برزت : أى جعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها ، والغاوين : الضالين عن طريق الحق ، فكذبوا : أى ألقوا على وجوههم مرة بعد أخرى من قولهم كبه على وجهه : أى ألقاه ، يختصمون : أى يخاضعون من معهم من

الأصنام والشياطين ، نسويكم : أى نجعلكم مساوين له فى استحقاق العبادة ،
والصديق : هو الصادق فى وده ، والحميم : هو الذى يهيمه ما أهكم ، والكبرة : الرجعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا ينفع فى هذا اليوم مال ولا بنون ، وإنما ينفع البعد من
الكفر والنفاق - ذكر هنا من وصف هذا اليوم أموراً تبين شديد أهواله ،
وعظيم نكاله .

الإيضاح

ذكر ما يحدث فى هذا اليوم مما يبشر بشواب للمتقين ونكال الكافرين ،
ثم تقرّيعهم على ما اجترحوا من السيئات فقال :

(١) (وأزلفت الجنة للمتقين) أى إن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء
ينظرون إليها ويفرحون بأنهم سيحشرون إليها كما جاء فى آية أخرى : « وَأَزْلَمَتْ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ » .

وفى هذا تعجيل لمسرتهم كفاء ما عملوا لها ، ورضوا عن الدنيا وزخرفها .

(٢) (وبرزت الجحيم للغاوين) أى وتكون النار بارزة مكشوفة للأشقياء
بحيث تكون برأى منهم ، يسمعون زفراتها التى تبلغ منها القلوب الحناجر ويوقنون
بأنهم واقعوها لا يجدون عنها مصرفاً .

وفى هذا تعجيل لعنم والحسرة ، إذ نسوا فى دنياهم هذا اليوم كما جاء فى قوله :
« وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسِيتُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ
مِنْ نَاصِرِينَ » .

ثم ذكر أنه يسأل أهل النار تقرّيعاً لهم .

(٣) (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينجسونكم؟)

أى أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها ؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم ، أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنفسهم ؟ لا - إنهم وآلهتهم وقود النار .

والخلاصة - ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من الأصنام والأوثان بمنية عنكم اليوم شيئاً ، ولا هى بدافعة عن نفسها شيئاً ، فإنكم وإياها اليوم حسب جهنم أنتم لها وارزون .

ثم ذكر ما لهم بعدئذ فقال :

(٤) (فككبوا فيها هم والعاورون . وجنود إبليس أجمعون) أى فالتقى الآلهة والعاورون الذين عبدوها فى النار ، والشياطين والداعون إلى عبادتها - على رؤوسهم أو ألقى بعضهم على بعض .

وتأخير العاورين فى الككببة عن آلهتهم ؛ ليشاهدوا سوء حالهم فينقطع رجاؤهم منهم قبل دخول الجحيم .

ثم ذكر ما يحدث من المحاصمة والمحااجة بين الآلهة والعاورين عبدتها والشياطين الذين دعواهم إلى تلك العبادة .

(٥) (قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا فى ضلال مبين . إذ نسويكم رب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون) أى قال العاورون وهم يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين : تالله إننا كنا فى ضلال واضح لاليس فيه حين سويتناكم رب العالمين فى استحقاق العبادة وعظمتناكم تعظيم المعبود الحق ، وما أضلنا إلا المجرمون من الرؤساء والكبراء كما جاء فى آية : « رَبَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلًا » .

وخلاصة ذلك - إنهم حين رأوا صور تلك الآلهة اعترفوا بانخطأ العظيم الذى كان منهم وندموا على طاعتهم لأولئك الرؤساء والسادة الذين حملوهم على عبادتها وتعظيم شأنها .

ثم أكدوا ندمهم على ما فرط منهم وحسرتهم على ما صنعوا .

(فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم) أى فليس لنا اليوم شفيع يشفع لنا مما نحن فيه من ضيق أو ينقذنا من هلكة ، ولا صديق شفيق يعنيه أمرنا وبيوتنا ونوده . ونحو الآية ما جاء فى آية أخرى حكاية عنهم : « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » .

وقد أرادوا بهذا الإخبار إظهار اللهفة والحسرة على فقد الشفيع والصديق النافع ، وقد نفوا أولاً أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ثم ترقوا ونفوا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم .
والمخالصة— إن الأمر قد بلغ من الهول ما لا يستطيع أحد أن ينفع فيه أدنى نفع .
ثم حكى الله عنهم تمنيهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله يعلم إنهم لو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه وإنهم لكاذبون فقال :

() (فلو أن لنا كرة فكنون من المؤمنين) أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، حتى إذا متنا وبعثنا مرة أخرى لا ينالنا من العذاب مثل ما نحن فيه .

(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أى إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحججة عليهم فى التوحيد - لآية واضحة جلية على أنه تعالى لارب غيره ولا معبود سواه ، ومع كل هذا ما آمن به أكثرهم .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما يجده من تكذيب قومه له مع ظهور الآيات وعظيم المعجزات

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإن ربك المحسن إليهم بإرسالك هدايتهم - هو القادر على الانتقام منهم ، الرحيم بهم إذ لم يهلكهم ، بل أخرج ذلك وأرسل إليهم الرسل ونصب لهم الشرائع ، ليؤمنوا بها ثم أذرتهم .

قصص نوح عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ؟ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَدُنْكَ وَاتَّبِعْكَ الْأَرذَلُونَ (١١١)
قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حَسِبْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ
تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
(١١٥) قَالُوا لَنْ لَمْ تَلْتَمِمْ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ
رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ يَدَيَّ وَيَدِئْتَهُمْ فَتَجَحَّ وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا
بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) .

شرح المفردات

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونفريذكر ويؤنث ، أخوهم : أى أخوة
نسب كما يقال يا أبا العرب ويا أخا تميم ، يريدون يا من هو واحد منهم ؛ قال الجاسي :
لا يسألون أخاهم حين يتدبهم في النائبات على ما قال برهانا
الأرذلون : واحد هم أرذل ، والرزالة : الخسة والدناءة ، وقد استردوهم ؛ الاتضاع
نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من المرجومين : أى من المقتولين رميا بالحجارة ،

فافتح : أى احكم من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفلك : يستعمل واحدا وجمعا ، المشجون : أى المملوء .

المعنى الجملى

بعد أن قص على رسوله صلى الله عليه وسلم قصص أبيه إبراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم إليه من أدلة التوحيد وما حججهم به من الآيات - أردف هذا بقصص الأب الثانى وهو نوح عليه السلام ، وفيه ما لا فاه من قومه من شديد التكذيب لدعوته وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان وأنه مع طول الدعوة لهم لم يزدحم ذلك إلا عتوا واستكبارا ، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم ممن كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد : « وَأَمْلِي لَهُمْ بَطُولَ الْأَمْدِ : « وَأَمْلِي لَهُمْ بَطُولَ الْأَمْدِ » كَذَبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ بَعْدَ أَنْ أَمَلَى لَهُمْ بَطُولَ الْأَمْدِ : « وَأَمْلِي لَهُمْ بَطُولَ الْأَمْدِ » فَأَغْرَقَهُمُ الطُّوفَانُ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مِنْ حَمَلَانِ السَّفِينَةِ .

وهذا القصص مجمل تقدم تفصيله فى سورة الأعراف وهود ، وسيأتى بسطه أتم البسط فى سورة نوح .

الإيضاح

(كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟) أى كذبت قوم نوح رسل الله حين قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون الله فتتحذروا عقابه على كفركم به وتكذيبكم رساله ؟ .

وجعل تكذيب نوح تكذيبا للمرسل جميعا ، لأن تكذيبه يتضمن تكذيب غيره منهم ، إذ طريقتهم لا تختلف ؛ فهى فى كل مكان وزمان الدعوة إلى التوحيد وأصول الشرائع .

وقد حكى سبحانه عن نوح أنه خوفهم أولا بقوله : ألا تتقون ؟ لأن القوم إنما قبلوا تلك الأديان تقليدا ، والمقلد إذا خوف خاف ، وما لم يستشعر بالخوف لا يشتغل بالاستدلال والنظر .

وقد وصف نوح نفسه بأمرين :

(١) (إني لكم رسول أمين) أى إني رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثني به .
أبلغكم رسالته لا أزيد فيها ولا أنقص منها .

(فاتقوا الله وأطيعوا) أى خافوا عقاب الله وأطيعوا فيما أمركم به من التوحيد؛
وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته ، لأن التقوى هى ملاك الأمر كله فى هذه
الحياة ، وكرر الأمر بها لأنها العمدة فى جميع الأعمال ، فيجب على العامل ملاحظتها
إذا أراد الإحسان وتجويد العمل .

(٢) (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) أى لا أطلب
منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أطلب ثواب ذلك من عند الله .

(فاتقوا الله وأطيعوا) فقد وضع الأمر لكم وبأن نصحى وأمانتى فيما بعثني
الله به واثمنتى عليه ، وسبب التكرير ما علمته من قبل ، ونظير هذا ما يقول الوالد
لولده : ألا تتقى الله فى عقوقى وقد رببتك صغيرا ، ألا تتقى الله فى عقوقى وقد
علمتك كبيرا .

وبعد أن أقام الدليل على صدق رسالته وعظيم نصحه وأمانته لهم أرادوا أن
يتصلوا من اتباع دعوته بحجة هى أوهى من بيت العنكبوت .

(قالوا أنؤمن لك واتبعك الأراذلون؟) أى قالوا كيف نتبعك ونصدقك
ونؤمن بك ونأتسى بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك؟ ومرادهم أن هذا لن يكون أبدا .
وهذه شبهة لا ينبغي لعاقل أن يركن إليها ، لأن نوحا عليه السلام بعث إلى
الخلق كافة ، لا فارق بين غنى وفقير ، وصملوك وأمير ، ولا بين ذوى البيوتات
والحسب وذوى الوضاعة والخسة فى النسب ، فليس له إلا اعتبار الظواهر دون التفات
والبحت عن البواطن ، ومن ثم أجابهم :

(قال وما علمى بما كانوا يعملون؟) أى وأى شئ يعملنى ما كان يعمل أتباعى؟
إنما لى منهم ظاهر أمرهم دون باطنه ، فمن أظهر الحسن ظننت به حسنا ، ومن أظهر

السوء ظننت به ذلك ، ولم أكف العلم بأعمالهم ، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان والإعتبار به لا بالحيراف والصناعات والفقير والغني ، وهم كأنهم يقولون إن إيمان هؤلاء لم يكن عن نظر صحيح ، بل لتوقع مال ورفعة .

ثم أبان أن أمر جزائهم وحسابهم على ربهم لا عليه ، فلا يعنيه استقصاء أحوالهم فقال :

(إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون) أى ما حسابهم على ما تحويه سرائرهم إلا على ربهم المطلع عليها لو كنتم من ذوى الشعور والعقل .

ولما جعلوا من موانع إيمانهم اتباع هؤلاء الأراذل كانوا كأنهم طلبوا طردهم فقال :

(وما أنا بطارد المؤمنين) أى وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعنى وصدق

بما جئت به من عند الله .

ثم بين وظيفة الرسول فقال :

(إن أنا إلا نذير مبين) أى إنما بعثت منذرا ونحوفا بأس الله وشديد عذابه ،

فمن أطاعنى كان منى وأنا منه ، شريفاً كان أو وضعيماً ، جليلاً كان أو حقيراً .

ولما أجابهم بهذا الجواب وأيسوا بما راموا لجثوا إلى التهديد .

(قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) أى قال قوم نوح له : لئن لم

تنته عما تدعو إليه من الطعن فى آلقتنا لترحمنك بالحجارة ولتقتلنك بها .

ولما طال مقامه بين ظهرانيهم ، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، سرا وإعلاناً ، وكما

كرر عليهم الدعوة صموا آذانهم وصمموا على تكذيبه وتمادوا فى عتوهم واستكبارهم -

استغاث بربه وطلب منه أن يحكم بينه وبينهم وأن يهلكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم لرسلم وينجيهم والمؤمنين به .

(قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من

المؤمنين) أى إن قومى كذبونى فيما أتيتهم به من الحق من عندك ، فاحكم بينى

وبينهم حكماً تهلك به المبطل وتنتقم منه وتنصر به الحق وأهله .

وجاء في آية أخرى « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَ الصَّخِرُ » .

وفي ذلك إيماء إلى طلب إنزال العذاب بهم كما يرشد إلى ذلك قوله : (ونحنى
ومن معى من المؤمنين) .
فأجاب الله دعاءه كما قال :

(فألجيناها ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين) أى ألجينا نوحا
ومن اتبعه على الإيمان بالله وطاعة رسوله ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره .
وفي قوله - المشحون - إيماء إلى كثرتهم وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم ،
وقد روى أنهم كانوا ثمانين ، أربعين من الرجال وأربعين من النساء .

(إن في ذلك لآية) أى إن في إنجاء المؤمنين وإنزال سطوتنا وبأسنا بالكافرين
لعبرة وعظة لقومك المصدقين منهم والكاذبين ، على أن سننتنا إنجاء رسلنا وأتباعهم
إذا نزلت تقمتمنا بالكاذبين من قومهم ، وكذلك هى سنتى فيك وفى قومك .

(وما كان أ كثرهم مؤمنين) أى ومع كل ما حذر به نوح . وأنذر لم يؤمن به
إلا القليل ، وفى هذا إيماء إلى أنه لو كان نصفهم مؤمنين لما عوجلوا بالعقاب .
(وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أى وإن ربك لهو العزيز فى انتقامه ممن
كفر به وخالف أمره ، الرحيم بالتائب منهم أن يعاقبه بعد توبته .

قصص هود عليه السلام

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَنْبُونَ
بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَخْذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩)

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا
 الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ
 عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ
 الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ (١٤٠)

شرح المفردات

عاد : اسم أبى القبيصة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب
 أو ببنى فلان أو آل فلان ، والربع (بالفتح والكسر) المكان المرتفع ، ويقال كم ربيع
 أرضك أى ارتفاعها ، آية : أى قصراً مشيداً عالياً ، تعبثون : أى تعملون العبث ،
 وما لافائدة فيه ، مصانع : أى قصوراً مشيدة وحصوناً منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه
 أى كأنكم تخلدون ، والبطش : الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاتى بلا رأفة
 ولا شفقة ، أمدكم : أى سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ،
 خلق الأولين : أى عادتهم التى كانوا يدينون ، ونحن بهم مقتدون : نموت ونحيا
 بلا حساب ولا بعث .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص نوح وقومه وأن نوحاً دعاهم وحذرهم عقاب الله وطال عليه
 المطال ولم يزددهم ذلك إلا عتوا ونفورا ، فدعا ربه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون - أردف
 هذا بقصص هود عليه السلام مع قومه عاد ، وكانوا بعد قوم نوح كما قال فى سورة

الأعراف « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً » .

يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل القريبة من حضرموت ببلاد اليمن وكانت لهم أرزاق دارّة وأمّوال ، وجنات وأنهار وزروع وثمار ، وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان ، فبعث الله فيهم نبياً منهم يبشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ويحذرهم نعمته وعذابه ، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله .

الإيضاح

(كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) جاءت هذه المقالة على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه إلى أن بعثة الأنبياء أسسها الدعاء إلى معرفة الله وطاعته فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وإن اختلفوا في تفصيل الأحكام تبعاً لاختلاف الأزمنة والعصور ، وأن الأنبياء منزّهون عن المطامع الدنيوية لا يأنهون بها ، ولا يحملونها قبلة أنظارهم ، ومحط رحالهم .

ولما فرغ من دعائهم إلى الإيمان أتبعه إنكار بعض ما هم عليه فقال :

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) أي أتبنون في كل مرتفع عال قصراً مشيداً للفتاخر والدلالة على العنى .

(وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أي وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم مخلدون في الدنيا .

روى ابن أبي حاتم أن أبا الدرداء رضى الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في غوطة دمشق من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنأدى : يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستجيبون ، ألا تستجيبون ، تجمعون

مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأكلون مالا تدركون ، إنه قد كانت
قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، وبينون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أممهم
غرورا ، وأصبح جمعهم بُورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا ملكت
ما بين عدن وعمّان ، خيلا وركابا ، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟ .

(وإذا بطشتم بطشتم جبارين) أى إنكم قوم قساة غلاظ الأكباد ذوو جبروت
وعتو ، فإذا عاقبتم عاقبتم دون شفقة ولا رأفة .

وخلاصة ما قال — إن أفعالكم تدل على حب الدنيا وعلى الكبرياء والتسلط
على الناس بجهروت وعسف .

ولما نهاهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والجبروت ، دعاهم إلى العمل
للاخرة زجرا لهم عما هم فيه فقال :

(فاتقوا الله وأطيعون) أى فاحذروا عقاب الله واركبوا هذه الأفعال الذميمة
وأطيعوني فيما أذعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن ذلك أجدى
لكم وأنفع .

ثم وصل العظة بما يوجب قبولها بالتنبيه إلى نعم الله التي غرتهم ، وفواضله التي
عمتهم ، وذكرها أولا بحجة ثم فصلها ليكون ذلك أوقع في نفوسهم فيتحفظوها
ويعرفوا عظيم قدرها فقال :

(واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبتين . وجنات وعيون) أى واتقوا
عقاب الله بطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فابتعدوا عن اللعب واللهو وظلم الناس
والفساد فى الأرض ، واحذروا سخط من أعطاكم من عنده ما تعلمون من الأنعام
والبنيان والبساتين والأنهار تتبعون بها كما شئتم ، حتى صرتم مضطرب الأمثال فى الغنى
والثروة والزخرف والزينة ، فاجعلوا كفاء هذا عبادة من أنعم بها وتعظيمه وحده .

ثم بين السبب في أمرهم بالتقوى فقال :

(إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أي إني أخاف عليكم إن أصررتم على كفركم ولم تشكروا هذه النعم ، عذاب يوم شديد الهول تذهل فيه المرصعة عما أرضعت ، وترى الناس فيه سكارى حيارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

وبعد أن بلغ الغاية في إنذارهم وتخويفهم ، وترغيبهم وترهيبهم كانت خاتمة مطافه أن قابله بالاستخفاف وقلة الاكتراث والاستهانة بما سمعوا ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أي هوّن عليك وأرح نفسك ، فكل هذا تعب ضائع ، وجهاد في غير عدو ، وضرب في حديد بارد ، فإننا لن نرجع عما نحن عليه ، وقد حكى سبحانه قولهم في سورة هود : « وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » .

ثم ذكروا السبب في أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم :

(إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذنين) أي ما هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، فنحن سالكون سبيلهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولا ثواب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار .

(فكذبوه فأهلكناهم) أي فاستمروا في تكذيبهم ومخالفة أمر رسوله ، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية : (ريح عظيمة ذات برد شديد) كما جاء في قوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » وقوله : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى » .

(إن في ذلك لآية) أي إن في إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها - عبرة لقومك المكذبين بك فيما أنبتهم به من عند ربك .

(وما كان أكثرهم مؤمنين) أى وما كان أكثر من أهلكتنا بالذين يؤمنون

فى سابق علمنا .

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإن ربك هو الشديد فى انتقامه من أعدائه ،

الرحيم بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأصلحوا .

قصص صالح عليه السلام

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا

تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤)

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)

أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ

وَأَنْخَالٍ طَلَعُوا هَظِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ

فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣)

مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ

هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧)

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) .

شرح المفردات

الطلع : أول ما يطلع من الثمر وبعده يسمى خلالاً ثم بلحاً ثم بسراً ثم رطباً ثم تمراً ، والهضم : هو النضيج الرخض اللين اللطيف ، والنحت : النجر والبرى ، والنحاتة : البراية ، والمنحت : ما ينحت به ، والفرة : النشاط وشدة الفرح . من السحرين : أى الذين سحروا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : بالكسر (النصيب والحظ ، فمقروها : أى رموها بسهم ثم قتلوها .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص عاد وهود - قص قصص ثمود وصالح وقد كانوا عرباً مثلهم يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى والشام ، ومساكنهم معروفة تتردد عليها قريش في رحلة الصيف وهم ذاهبون إلى بلاد الشام . دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم ، فأبوا وكذبوا بعد أن أتى لهم بالآيات المصدقة لرسالته ، فأخذهم العذاب وزلزلت بهم الأرض ولم تبق منهم دياراً ولا نافخ نار .

الإيضاح

(كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) أى كذبت ثمود أخاهم صالحاً حين قال لهم : ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم بإياه ، وخلافكم أمره ، بطاعتكم أمر المفسدين في الأرض ؟ إني لكم رسول من عند الله أرسلاني إليكم بتحذيركم عقوبته ، أمين على رسالته التي أرسلها معي إليكم ، فاتقوه وأطيعوني ، وما أسألكم على نصحي إياكم وإنذاركم جزاء ولا ثواباً ، ما جزائي إلا على رب السموات والأرض وما بينهما .

ثم خاطب قومه واعظاهم ومحذرا لهم ونم الله أن تحل بهم ومذكرا بأنمه عليهم
فيا آتاهم من الأرزاق الدارّة والجنات والعيون والزروع والثمار ، والأمن من
المحذورات فقال:

(١) (أتركون فيما هاهنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلها هضم؟)
أى لا تظنوا أنكم تتركون في دياركم آمنين متمتمين بالجنات والعيون والزروع والثمار
اليانعة ، وأن لا دار للجزاء على العمل .

فعليكم أن تتذكروا أن ما أنتم فيه من نعيم وأمن من عدو لن يدوم وأنكم عائدون
إلى ربكم ، مجازون على أعمالكم خيرها وشرها .

(٢) (وتتخذون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون) أى وتتخذون
تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا من غير حاجة إلى سكنها مع الجد
والاهتمام في بنائها ، فاتقوا الله وأقبلوا على ما يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة من
عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، وتسيبجه بكبرة وأصيلا .

(٣) (ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) أى
ولا تطيعوا أمر رؤسائكم الذين تمدوا في معصية ربكم واجتروا على سخطه ، وهم الرهط
الفسدة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون وهم المذكورون في قوله :
« وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْمَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ » أى يسعون
في أرض الله بمعاصيه ، ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعته .

وخلاصة هذا — لا تطيعوا رؤسائكم وكبراءكم الدعاة إلى الشرك والكفر
ومخالفة الحق .

ولما عجزوا عن الطعن في شيء مما دعاهم إليه عدلوا إلى التخييل إلى عقول
الضعفاء والعامّة :

(١) (قالوا إنما أنت من المسحّرين) أى أنت من سحر كثيرا حتى غلب
على عقله ، فلا يقبل لك قول ، ولا يسمع لك نصح .

(٢) (ما أنت إلا بشر مثلنا فات بآية إن كنت من الصادقين) أى إنك بشر مثلنا ، فكيف أوحى إليك دوننا؟ كما حكي عنهم فى آية أخرى : « أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ . سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ؟ » .

ثم أجابهم إلى ما اقترحوا من الآيات الدالة على صدقه فيما جاء به من عند ربه . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) أى قال صالح للثمود لما سأله آية يعلمون بها صدقه : يا قوم هذه ناقة الله آية لكم ، ترد ماءكم يوماً وتردونه أتم يوماً فلها حظ من الماء يوماً ولكم مثله يوماً آخر .

قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، ولا تشرب فى يومهم ماء . روى أنهم اقترحوا عليه عُشراء (حامل فى عشرة أشهر) تخرج من لصخرة عينوها ، ثم تلد سقياً ، فقمعد عليه الصلاة والسلام يتذكر ، فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك ، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وتنجت سقياً مثلها فى العظم . وإن أمثال هذه الروايات لا يجب علينا التصديق بها إلا إذا ثبتت بصحيح الأخبار .

(ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب يوم عظيم) أى ولا تمسوها بسوء كضرب أو عقرب فيجلب بكم عذاب لا قبل لكم به . ثم حكي عنهم أنهم خالفوا أمر نبيهم فقال :

(فمقروها فأصبحوا نادين . فأخذهم العذاب) أى فعقروا الناقة بعد أن مكثت بين أظهرهم حينما من الدهر ترد الماء وتأكل المرعى ، ثم ندموا على ما فعلوا حين علموا أن العذاب نازل بهم إذ أنظرهم ثلاثة أيام وفى كل يوم منها تظهر مقدمات نزوله فندموا حيث لا ينفع الندم ، فأخذهم العذاب وزلزلت أرضهم زلزالا شديدا وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت منها قلوبهم ، ونزل بهم من الله ما لم يكونوا يحاسبون ، فأصبحوا فى ديارهم جائعين .

(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

تقدم تفسيرها .

قصص لوط عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِيشَكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَجَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) .

شرح المفردات

أخوهم : أى فى البلد والسكنى ، لافى الدين ولا فى النسب ؛ لأنه ابن أخى إبراهيم وهما من أرض بابل ، والذكران : واحدهم ذكر ضد الأثى من كل حيوان ، عادون أى متعدون الحدود التى رسمها العتل والشرع ، من المخرجين ، أى ممن نخرجهم من أرضنا وننفىهم من قريتنا ، من القالين : أى المبغضين لفعالكم ، والقلى : البغض

الشديد كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قلبته أقلبه قلب وقلاء ، الغابرين : أى الباقين فهى لم تخرج مع لوط ومن مضى معه .

المعنى الجملى

قص الله علينا فى هذه الآيات قصص لوط بن هاران بن آزر ابن أخى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله فى حياته إلى أمة عظيمة آسكن سدوم وما حولها من المدن من بلاد العور بالقرب من بيت المقدس ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته وارتكاب ما كانوا ابتدعوا من الفواحش مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، فكذبوه فأهلكهم الله ، فأرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء فاحترقت قريتهم وأحدث بها زلزالا جعل عاليها سافلها كما جاء فى قوله : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ » .

الإيضاح

(كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) تقدم تفسير هذا فى سالف القصص .

وبعد أن نصحهم بما سلف ذكره وبخهم على قبيح ما ابتدعوه بقوله :

(أناتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) أى أنتم دون الناس جميعا تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء اللاتى جعلهن الله حلالاً لكم تستمتعون بهن ويستمتعن بكم .

(بل أنتم قوم عادون) أى بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان وتجاوز الحدود التى تسيغها العقول وتبيحها الشرائع ، بارتكابكم هذا الجرم الذى لم يخطر ببال أحد من قبلكم .

ولما اتضح لهم وجه الحق وانقطعت حججهم لجثوا إلى التهديد واستعمال القوة :
(قالوا أن لم تنته يا لوط لتكون من المخرجين) أى لمن لم تنته عما أنت فيه
من إنكارك ما تنكره من أمرنا لننفيتك من قريتنا ، وليكون شأننا معك شأن من
أخرجناهم من قبلك بالعنف والفسق واحتباس الأموال : (كما هو شأن الظلمة إذا
أجلوا بعض من يبغضونهم صادروا أملاكهم) .

حينئذ أجابهم بأن إبعاده لا يقف به عن الإنكار عليهم .

(قال إني لعملكم من القالين) أى إني برىء مما تعملون ، مبغض له ، لأحبه
ولا أرضاه ، ولا يضيرنى تهديدكم ولا وعيدكم ، وإني لراغب فى الخلاص من
سوء جواركم .

وقال (من القالين) دون (قال) إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون
لأبغضوه ، كما يقال فلان من العلماء فإنه أشد مدحاً من قولك فلان عالم ، إذ الأولى
تدل على أنه فى عداد زمرة العلماء المعروفين بمساهمته لهم فى العلم .

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى الله أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله قال :
(رب نجنى وأهلى مما يعملون) أى رب نجنى من شؤم أعمالهم وأبعدنى من
عذابك الدينوى والأخروى .

فأجاب الله دعاءه وأغاثه بعد أن استغاثه قال :

(فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين) أى فنجيناه وأهله جميعاً مما حل
بأهل القرية من العذاب ، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم منازل ، إلا عجوزاً
قد بقيت ولم تخرج معه وهى امرأته كما جاء فى سورة هود : « إِلَّا أَمْرَأَتَكَ إِنَّهُ
مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » وكانت عجوز سوء لم تتبع لوطاً فى الدين ولم تخرج معه .

والخلاصة — فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلا عند حلول
العذاب بهم إلا عجوزاً قدر الله بقاءها لسوء أفعالها وقبح طويتها ، ولما لها من ضلع
فى استحسان أفعالهم .

(ثم دمرنا الآخرين، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) أى ثم أهلكنا
المؤخرين عن لوط فأمطرنا عليهم حجارة من السماء . قال وهب بن منبه : أنزل الله
عليهم الكبريت والنار .

وبئس المطر هذا وما أشد وطأته ، وما أقسى وقعه ، فقد أحدث بأرضهم زلزالا
جعل عاليها سافلها .

(إن في ذلك آية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم)
سبق تفسير ذلك .

إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون

كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلا قالت فيه : روت الكتب المنزلة أن الله
أهلك مدينتي سدوم وعمورة وثلاث مدن أخرى بجوارهما بأن أمطر عليهم نارا
وكبريتا من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل وأهل بيته ولوط وابنتيه
ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزع إليها من الشمال طلبا للكلا والمرعى
على حسب عادة القبائل الرحل في ذلك الزمن .

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه قصة خرافية ، وبعضهم يقول إنها قصة
واقعية كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت (بحيرة لوط) .

وقد قام الدكتور (أوليرابط) بمباحث واسعة في وادي نهر الأردن وعلى
سواحل البحر الميت حيث يظن أن سدوم وعمورة والثلاثة المدن الأخرى كانت
فيها ، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها ، وعلم أن إبراهيم عليه الصلاة
والسلام المحدث حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد ما بين النهرين إلى
فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهله ومعهما أنعام كثيرة ، فحدث نزاع
وشجار بين الرعاة فرأى لوط حنظلا للسلام أن يفترق عن إبراهيم واختار منطقة

وادي الأردن التي كانت فيها سدوم وعمورة وأقام سدوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التي في الشمال وضرب خيامه هنالك .

وكشف الدكتور آبارا تدل على صدق هذه القصة ، إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمسمائة قدم وبجواره (المذبح) وهو حجارة منصوبة على شكل أعمدة يرجح أن الوثنيين في ذلك الزمن كانوا يقدمون عليها قرابينهم ، ويرجح أن البحر الميت طغا على المدن الخمس التي كانت في منطقة الأردن اه .
وبعض علماء الجيولوجيا (طبقات الأرض) يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت آهلة بالسكان .

وفي التوراة إن إبراهيم كان ذات يوم جالسا بباب خيمته في حر النهار إذ أقبل إليه ثلاثة ملائكة فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة واحتفى بهم ، وفي أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم ، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم وانغماسهم في شهواتهم البهيمية ولا سيما المحرمة منها ، فلما وصلوا إلى سدوم ساروا تورا إلى منزل لوط ابن أخي إبراهيم ليبيتوا عنده ، وعلم أهل سدوم بقدمهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موقبا ، ولكن لوطا دافع عنهم وعرض أن يضحى بشرف ابنتيه لينقذهم ، فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، وقد تمكن الضيوف من الفرار ، وأقموا لوطا وأهل بيته بالفرار ، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط (صوعس) فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء وقلب تلك المدن وجميع سكانها ونظرت امرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود ملح : (اختنقت بالغازات الكثيرة التي التهمت إما بحدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو) .

وفي التاريخ ما يدل على حدوث انقلابات هيولوجية شبيهة بحادثة (سدوم وعمورية) فقد يشور بركان ويتدفق حممه على البلاد المحاورة فيغمرها ويهلك أهلها ، وقد تغور بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هي وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدنا بأسرها .

والخلاصة — إن هذه المدن كانت قاعدة لمعوك جبارين وكانت ذات رياض
غناء وغياض غنية بوفرة ماؤها وخيراتها وشمل أهلها الفساد ورتعوا في شهواتهم البهيمية
ولم يبق فيها برّ إلا لوط وأهله ، فانقم الله منهم فأمطر عليهم نارا وكبريتا من
السماء فألب البراكين النارية التي فيها فعجالت دمارهم وحسفت الأرض بهم وظهرت
البحيرة على ما نراه الآن .

قصص شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ
أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
(١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
(١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا
بِالْقِسْطِ بِالْمُتَّقِينَ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى
(١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي
ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٩١) .

شرح المفردات

الأبكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث الله إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسبا ، من المحسرين : أى اللطفين الآخذين من الناس أكثر مما لكم ، والقسطاس : الميزان ، والمستقيم : أى العدل ، ولا تعشوا : أى لا تنفسدوا ، والجبلة : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وبضمهما وتشديد اللام : الخلق والطبيعة ، ويقال جبل فلان على كذا : أى خلق ، والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة ، كسفا : واحدها كسفة كقطمة (وزنا ومعنى) والظلة : السحابة التى استظلوا بها .

المعنى الجملى

قص الله تعالى علينا فى هذه الآيات قصص شعيب مع قومه أهل مدين وقد بعثه إليهم فنصحهم بإبقاء الكيل والميزان وألا يعشوا فى الأرض فسادا فكذبوه ، فسخط الله عليهم الحر الشديد فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحرّ من غيرها فيخرجون ، ثم أظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا .

الإيضاح

(كذب أصحاب الأبكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) سبق تفسير هذا .

وبعد أن نصحهم بتلك النصائح وعظهم بعبطة أخرى ، فنهاهم عن نقيصة كانت شائعة بينهم وهى التطفيف فى الكيل والميزان فقال :

(أوفوا الكيل ولا تكونوا من المحسرين) أى إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملا ولا تبخسوهم حقهم فتمطوه ناقصا ، وإذا اشتريتم فخذوا كما لو كان البيع لكم .

وخلاصة ذلك — خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون .

(وزنوا بالتقسط المستقيم) أى وزنوا بالميزان السوى العدل ، وقد جاء في سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه فقال : « وَيَلِّمُ الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا بِهِمْ يُخْسِرُونَ . أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » .

ثم عمم النهي عن البخس في كل حق فقال :

(ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أى ولا تنقصوا الناس حقهم في كيل أو وزن أو غيرهما كالمدروعات والمعدودات كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير ، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير وهكذا .

ثم نهاهم عن جرم أعظم شأنا وأشد خطرا وهو الفساد في الأرض بجميع ضرور الفساد فقال :

(ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أى ولا تكثرُوا فيها بالقتل والغارة وقطع الطريق والسلب والنهب ونحوها .

وبعد أن نهاهم عن ذلك خوفهم سطوة الجبار الذى خلقهم وخلق من قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشا وعتوا فقال :

(واتقوا الذى خلقكم والجليلة الأولين) أى وخافوا بأس الله الذى خلقكم من العدم للإصلاح فى الأرض وخلق من قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة وأكثر مالا كقوم هود الذين قالوا من أشد منا قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد تمخض هذا النصيح عن شيئين : القدح فى رسالته أولا ، واستصغار الوعيد ثانيا :

(١) (قالوا إنما أنت من المسحرين) أى ما أنت إلا من سحر عقله مرة بعد

أخرى فصار كلامه جزافا لا يعبر عن حقيقة ولا يصيب هدف الحق .

(وما أنت إلا بشر مثلنا) فما وجه تفضيلك علينا وإرسالك رسولا إلينا .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم : (وَإِنْ نَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) أى وإنا لنعتمد أنك ممن يعتمد الكذب فيما يقول ، ولم يرسلك الله نبياً إلينا .

(٢) (فَأَسْقَطْنَا عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أى إن كنت صادقاً فى دعواك الرسالة فأنزل علينا من السحاب قطعا يكون فيها العذاب لنا .

وهذا شبيه بما قالته قريش لنبيهم فيما حكى الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا أَنْ تَأْتِيَنَا بِلَاةٍ كَمَا تَأْتِيَنَا بِالْبَلَاءِ وَنُنَافِئُكَ بِمَا تَكْفُرُ » .
 لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا - إِلَى أَنْ قَالُوا - أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّيْلِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » وقوله : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

فأجابهم شعيب :

(قَالَ رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) فيجازيكم به ، فإن شاء عمل لكم العذاب ، وإن شاء أخره إلى أجل معلوم ، وما على إلا البلاغ ، وأنا مأمور به ، فلم أندركم من تلقاء نفسى ، ولا أدعى القدرة على عذابكم .

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أى وهكذا دأبوا على التكذيب فجازاهم بحس ما طلبوا من إسقاط الكسف من السماء ، فجعل عقوبتهم أن أصابهم حرّ عظيم أخذ بأنفسهم لم ينفعهم فيه ظل ولا ماء ولا شراب ، فاضطروا أن يخرجوا إلى البرية فأظلمت سحابة وجدوا لها بردا ونسجا فاجتمعوا كلهم تحتها ، فأمطرتهم شوائما من نار فاحترقوا .

(إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ) أى إن فى ذلك الإنجاء لكل رسول ومن أطاعه ، والعذاب لكل من عصاه فى كل العصور - لدلالة واضحة على صدق الرسل ، وما كان أكثر قومك بمؤمنين مع أنك قد أتيتهم بما لا يكون معه شك لنا يصحبه من الدليل والبرهان .

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإنه هو العزيز فى انتقامه من الكافرين
الرحيم بعباده المؤمنين التائبين .

(تنبية) جاءت هذه القصص السبع مختصرة هنا وفيها البرهان الساطع على
أن القرآن جاء من عالم الغيب ، فإن النتائج التى حصل عليها الأنبياء مع أقوامهم
هى مثل النتائج التى حصل عليها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن حين نزولها
ذاشوكة ولا ذاقوة ، وأن ما أصيب به من التكذيب والأذى وكانت عاقبته الفتح
والنصر المبين - نموذج لما حدث للأنبياء السابقين قبله .

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)
عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ
لَفِي زُبُرِ الْأُولَى (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠)
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
(٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ
(٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنْزَلَتْ
بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنْ
السَّمْعِ مُعِزُّوُونَ (٢١٢) .

شرح المفردات

الروح الأمين : هو جبريل عليه السلام ، ووصف بالأمين لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده ، على قلبك : أى على روحك لأنه المدرك والمكلف دون الجسد ، والزبر : الكتب ، واحدها زبرة كصحف وصفحة ، والآية : الدليل والبرهان ، والأعجمين : واحداهم أعجمي ، وهو من لا يقدر على التكلم بالعربية ، سلكناه : أى أدخلناه ، وأجرمين : مشركي قريش ، بئته : نجاة ، منظرون : أى مؤخرون ، ذكرى : أى تذكرة وعبرة لغيرهم ، وما ينبغى لهم : أى ما يتيسر ولا يتسنى لهم ، وما يستطيعون : أى ما يقدرون على ذلك ، لمعزولون : أى لمنوعون بالشهيق بعد أن كانوا ممكنين .

المعنى الجملى

بعد أن اختتم سبحانه هذا القصص وبين ما دار بين الأنبياء وأقوامهم من الحجاج والجدل ، وذكر أنه قد أهلك المكذبين وكان النصر في العاقبة لرسوله المتقين وأن هذه سنته في كل صراع بين الحق والباطل أن تدول دولة الباطل وينتصر الحق وإن طال الزمن : « بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .

وفي ذلك سلوة لرسوله ، وعدة له بأنه مهما أودى من قومه ولقى منهم من الشدائد فإن الفلاح والنور له : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ أُمَّةً إِلَّا تَبَدَّلَ » .

أردف هذا ببيان أن هذا القرآن الذى جاء بذلك القصص وحي من الله أنزله على عبده ورسوله جبريل عليه السلام بلسان عربى مبين لينذر به العصاة ويبشربه عباده المتقين ، وأن ذكره لى الكتب المتقدمة الماثورة عن الأنبياء الذين بشروا به حتى قام آخرهم خطيبا فى ملته يبشربه كما قال : « وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا

رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » وأن العلماء من بني إسرائيل يحدون ذكره في كتبهم كما قال : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » وكما أن الأعمى إذا قرئ عليهم لم يذروا منه شيئاً ولم يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء الجرمون من قريش لا يؤمنون به كفرا وعنادا حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون ، فيتمنون إذ ذاك النظرة ليطيعوا الله ويتبعوا أوامره ، وأنى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمتي ساعتئذ ؟ « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » .

وقد جرت سنتنا لأنهلك قوما إلا بعد أن نعمت إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

ثم رد على مشركي قريش الذين قالوا : إن لحمد صلى الله عليه وسلم تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة - بأن الشياطين من سجايهم الفساد وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة في السماء ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا مدة إنزال القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع كما قال : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِيئَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا » .

الإيضاح

(وإِنَّهُ لَنَزَّلُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . لِبَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مَبِينٍ) أى وإن هذا القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله : « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّكَ مِنْ الرَّحْمَنِ » أنزله الله إليك وجاء به جبريل عليه السلام فتلوه عليكم حتى وعيته بقلبك ، لتندبر به قومك بلسان عربى بين ليكون قاطعا للمعذرة ، مقبلا للحجة ، دليلا إلى الحجية ، هاديا إلى الرشاد ، مصلحا لأحوال العباد .

وفي قوله : على قلبك إيمان إلى أن ذلك الميزل محفوظ وأن الرسول متمكن منه ، إلى أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز ، والعقل والاختيار وسائر الأعضاء مسخرة له ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « إِنْ فِي ذَلِكَ لِلذَّكْرِى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » أخرجاه في الصحيحين ولأن القلب إذا غشى عليه وقطع سائر الأعضاء لم يحصل له شعور ، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات .

وفي قوله : بلسان عربي مبين ، تفريع لمشركي قريش بأن الذي جعلهم على التكذيب هو الاستكبار والعناد ، لا عدم الفهم ، لأنه نزل بلغتهم ، فلا عذر لهم في الإعراض عنه .

(وإنه لى زبر الأولين) أى وإن ذكر هذا القرآن والتنويه بشأنه لى كتب الأولين للأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، وقد أخذ عليهم الميثاق بذلك وبه بشر عيسى بقوله : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » .

(أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ؟) أى أوليس بكاف لهم شهادة على صدقه أن العلماء من بنى إسرائيل نصوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته وتنته ، وقد كان مشركو قريش يذهبون إليهم ويتعرفون منهم هذا الخبر .

ذكر الثعلبي عن ابن عباس أن أهل مكة بعثوا إلى أخبار يثرب يسألونهم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هذا أوانه وذكروا نعتة .

وبعد أن أثبت بالدليلين السالفين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ذكر أن هؤلاء المشركين لا تنفعهم الدلائل ولا تجديهم البراهين فقال : « فلو أنزلناه على بعض الأعجميين ، فقراء عليهم ما كانوا به مؤمنين) أى إنا أنزلناه

هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله وبشرت به الكتب السالفة ومع هذا لم يؤمنوا به ، بل سجدوه وسموه ثارة شعرا وأخرى كهانة ، فلو أنزلناه على بعض الأعجمين الذي لا يحسن العربية فقرأه عليهم لكفروا به أيضا ، ولتحلوا لجحودهم عذرا وقالوا له : لانفقه ما يقول كما قال في آية أخرى : « وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » .

وفي هذا تسلية من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن قومه اثلا يشتد حزنه بإدبارهم عنه وإعراضهم عن الاستماع له .

والخلاصة — إننا لو أنزلناه على بعض الأعجمين : « لا عليك فإنك رجل منهم ويقولون لك ما أنت إلا بشر مثلنا وهلا نزل به ملك » فقرأه ذلك الأعجم عليهم ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق وأنه منزل من عندنا ما كانوا به مصدقين ، فحوض من حرصك على إيمانهم به فإنهم لا يؤمنون به على كل حال ، بل يفترون عليهم وهم وكذبوا بهذا الإنكار أفضل تؤكد فقال :

(كذلك سلكتنا في قلوب الجرمن) أى كما أدخلنا التكذيب به بقراءة الأعم

أدخلنا التكذيب به في قلوب الجرمن كفار قريش .

وفي ذلك إيماء إلى أن ذلك التكذيب صار متبعنا في قلوبهم أشد التبعين وصار كالشيء الجبلى الذى لا يمكن تغييره . ثم زاد ذلك تأكيدا فقال :

(لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) أى إنهم لا يتأثرون بالأمر الداعية

إلى الإيمان ، بل يستمرون على ما هم عليه حتى يعانوا العذاب ، حين لا ينفع الظالمين

معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وإجمال ما تقدم — هكذا مكنا التكذيب وقرزناه في قلوبهم ، فكيفما فعل

بهم وعلى أى وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحود

وإنكاره كما قال : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

(فيا أيهاهم بغتة وهم لا يشعرون) أى نياتى هؤلاء المكذبين بهذا القرآن العذاب الأليم وهم لا يشعرون قبل ذلك بمجيئه حتى ينجأهم .

ثم بين أنهم يتمنون التأخير حينئذ ليتداركوا ما فات .

(فيقولوا هل نحن منظرون) أى فيقولوا على وجه الحسرة والأسف والتمنى للإمهال ليتداركوا ما فرطوا فيه : هل تؤخر إلى حين ؟ كما يستغث المرء حين تعذر الخلاص ، وهم يعلمون إذ ذاك أنه لا رجعة لهم ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحا . ولما أوعدهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا به ، ومتى هذا كما قال :

(أبعذابنا يستعجلون ؟) أى كيف يستعجلون عذابنا بنحو قولهم : « أَظُنُّرِ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم : « أَتُنَبِّئُنَا بِمَا تَعِدُّنَا » .

وقد تبين لهم كيف أخذنا للأمم الماضية والقرون الخالية والأقوام العاتية . ثم أبان أن طول العمر لا يفي عنهم شيئا وأن العذاب آت لا محالة فقال :

(أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أى هل الأمر كما يعتقدون من طول عيشهم فى النعيم ، فأخبرنى إن متعناهم فى الدنيا برغد العيش وصافى الحياة ، ثم جاءهم بعد تلك السنين المتطاولة ما كانوا يوعدون من العذاب ، فهل ما كانوا فيه من النعيم يدفع عنهم شيئا منه أو يخففه عنهم ؟ .

والخلاصة — إن طول التمتع ليس يدافع شيئا من عذاب الله ، وكانهم لم يمتعوا بنعيم قط كما قال : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وقال :

« يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » وقال : « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن البصري في الطواف بالكعبة وكان يتمنى لقاءه فقال : عطشى فلم يزد أن تلا هذه الآية فقال ميمون : لقد وعظت فأبليت .

ثم بين سبحانه أنه لا يهلك قرية إلا بعد الإنذار وإقامة الحججة عليها فقال :

(وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين) أى وما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد إرسالنا إليهم رسلا ينذرونهم بأسنا على كفرهم ، تذكرة لهم وتنبيهها إلى ما فيه النجاة من عذابنا ، وما كنا ظالمين في إهلاكهم ، لأنهم جحدوا نعمتنا وعبدوا غيرنا بعد الإعذار إليهم ومتابعة الحجج ومواصلة الوعيد .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وقوله : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » .

ولما كان المشركون يقولون : إن محمدا كاهن وما ينزل عليه من نوع ما تنزل به الشياطين أكذبهم الله بقوله :

(وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) أى وما نزلت الشياطين بالقرآن ليكون كهانة أو شعرا أو سحرا ، وما ينبغى لهم أن ينزلوا به ، وما يستطيعون ذلك وإن عاجلوه بكل وسيلة ، وإنهم عن سمع الملائكة لمحجورون بالشهب .

والخلاصة — إن الشياطين لا تنزل به لوجوه ثلاثة :

(١) إنه ليس من مبتغاهم ، إذ من سجاياهم الإضلال والإفساد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو هدى ونور وبرهان متين ، فبينه وبين مقاصد الشياطين منافاة عظيمة .

(٢) إنه لو انبغى لهم ما استطاعوا حمله وتأديته كما قال : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

(٣) إنهم لو انبغى واستطاعوا حمله وتأديبه لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمَعذِبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيٍّ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَأَتَوَكَّلُ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه في تسليية رسوله صلى الله عليه وسلم وأقام الحججة على نبوته ، ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه - أردف ذلك بأمره بعبادته وحده وإنذار العشيرة الأقربين ومعاملة المؤمنين بالرفق ، ثم ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى وحده ، فإنه هو العليم بكل شئونه وأحواله .

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما أنزل الله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يهجو إليه ورجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، رأيتم لو أخبرتم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ » وأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

لا أملك لك ضرا ولا نفعاً ، ألا أن لكم رحماً وسأبئها ببلاها - يريد أصلكم في الدنيا
ولا أغنى عنكم من الله شيئاً . . .
وفي الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب ،
وعلى جواز صلة المؤمن والكافر وإرشاده ونصيحته بدليل قوله : إن لكم رحماً
سأبئها ببلاها .

وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده لا يسمع بي أحد من
هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » .

وبعد أن أمره بإنذار المشركين من قومه أمره بالرفق بالمؤمنين فقال :

(٣) (واخضع جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى ألن جانبك وترفق
بمن اتبعك من المؤمنين ، فإن ذلك أجدى لك وأجلب لتلوبهم وأكسب لمحبتهم
وأفضى إلى معونتك والإخلاص لك . . .

(فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون) أى فإن عصاك من أنذرتهم من
العشيرة فلا ضير عليك وقد أدت ما أمرت به ، ولا عليك إثم مما يعملون وقل لهم إني
برىء منكم ومن دعائكم مع الله إلهي آخر ، وإنيكم مستجزون بجرمكم يوم لا ينفع مال
ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . . .

(٤) (وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين) .

أى وفوض جميع أمورك إلى القادر على دفع الضر عنك والانتقام من أعدائك الذين
يريدون السوء بك ، الرحيم بك إذ نصرك عليهم برحمته وهو الذى يراك حين تقوم
للصلاة بالناس ، ويرى تغيرك من حال كالجالس إلى حال كالقيام فيما بين المصلين
إذا كنت لهم إماماً ، وفي الخبر « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .
وعبر عن المصلين بالساجدين ، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(إنه هو السميع العليم) أى إنه هو السميع لأقوال عباده ، العليم بجرماتهم

وسكتاتهم، بسرهم ونجواهم كما قال: « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ». وقصارى ذلك — إنه هو القادر على نفعكم وضرركم، فهو الذى يجب أن تشكركوا عليه وهو الذى يكفيمكم ما أهمكم .

هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

شرح المفردات

أنبئكم : أى أخبركم ، والآفك : كثير الإفك والسكذب ، والأثيم : كثير الذنوب والفجور ، يلقون السمع : أى يصفون أشد الإصغاء إلى الشياطين فينتلقون منهم ما ينتلقون مما أكثره السكذب ، والغاؤون : الضالون : المائلون عن السنن القويم ، والوادي : الشعب ، يهيمون : أى يسبرون سيرة البهائم حائرين لا يهتدون إلى شيء ، والمنقلب : المرجع .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه امتناع نزول الشياطين بالقرآن وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين — أعقب هذا ببيان استحالة نزولهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها

لا تنزل إلا على كل كذاب فاجر ، ورسول الله صادق أمين ، ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين ، فيتلقون وحيهم وهو تخيلات لا تطابق الحق والواقع ، وبعدئذ ذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر ، لأن الشعراء يهيمون في كل وادٍ من أودية القول من مدح وهجو وتشبيب ومجون على حسب الهوى والمنفعة ، فأقوالهم لا لترجم عن حق ، وليس بينها وبين الصدق نسب ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الصدق ، فأتى له أن يكون شاعرا ؟ .

الإيضاح

(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) أى هل أخبركم خبرا جليا نافعا في الدين عظيم الجدوى في الدنيا ، تعلمون به الفارق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن - على من تنزل الشياطين حين تسترق السمع ؟ .

وهذا رد على من زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق ، وأنه شيء أتاه به ربي من الجن ، فبزه الله رسوله عن قولهم وافترائهم ، وتنبه إلى أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم ، وأنه ليس من قبل الشياطين .

ثم أشار إلى الجواب عن هذا السؤال بوجهين :

(١) (تنزل على كل أفك أثيم) أى هي تنزل على كل كذاب فاجر من الكهنة

بحوشق بن رهم ، وسطيح بن ربيعة .

(٢) (يلقون السمع وأكثرم كاذبون) أى يلقى الأفاكون سمعهم إلى الشياطين

ويصنعون إليهم أشد إصغاء ، فيتلقون منهم ما يتلقون ، وهؤلاء قلما يصدقون في أقوالهم ، بل هم في أكثرها كاذبون .

والخلاصة - إن هناك فارقا بين محمد صلى الله عليه وسلم والكهنة ، فمحمد

لا يكذب فيما يخبر عن ربه ، وما عرف عنه إلا الصدق ، والكهنة كذابون فيما يقولون ، وقلما عرف عنهم الصدق في أخبارهم .

وبعد أن ذكر الفارق بين محمد صلى الله عليه وسلم والكهنة - أردف ذلك بذكر الفارق بينه وبين الشعراء فقال :

(والشعراء يتبعهم الغاؤون) أى إن الشعراء يتبعهم الضالون الخائدون عن السنن القويم المائلون إلى الفساد الذى يجر إلى الهلاك ، وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ، بل هم الساجدون الباكون الزاهدون .

وقد سبق أن قلنا : إن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ومنه ما يكره أو يحرم ، روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : « ردت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟ قلت نعم ، قال هيه فأنشدته بيتا ، فقال هيه . ثم أنشدته بيتا ، فقال هيه ، حتى أنشدته مائة بيت . » وفى هذا دليل على العناية بحفظ الأشعار إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعا وطبعا ، وإيماننا استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه كان حكما ألا ترى قوله عليه السلام « كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم » .

ثم بين تلك الغواية بأمرين :

(١) (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) أى ألم تعلم أن الشعراء يسلكون الطارق المختلفة من الكلام ، فقد يدحون الشيء حينما بعد أن ذموه ، أو يعظمونه بعد أن احتقروه ، والعكس بالعكس ، وذلك دليل على أنهم لا يقصدون إظهار الحق ولا تعزى الصدق ، لكن محمدا جبلته الصدق ولا يقول إلا الحق ، وقد بقى على طريق واحد ، وهو الدعوة إلى الله والترغيب فى الآخرة والإعراض عن الدنيا .

(٢) (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فهم يرغبون فى الجود ويرضون عنه ، وينفرون عن البخل ويضرون عليه ، ويقدحون فى الأغراض لأدنى الأسباب ،

ولا يأتون إلا الفواحش ، ومحمد صلى الله عليه وسلم على خلاف ذلك . فقد بدأ بنفسه إذ قال له ربه : (فلأتدع مع الله إلها آخر فتنكون من المعذبين) ثم بالأقرب فالأقرب فقال : (وأنذر عشيرتک الأقربين) فليست حاله حال الشعراء .

ولما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة استثنى منهم من اتصف بأمر أربعة: الإيمان والعمل الصالح وكثرة قول الشعر في توحيد الله والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق وألا يهجو أحدا إلا انتصارا ممن يهجوهم اتباعا لقوله : « لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالشُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » كما كان يفعل عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير حين كانوا يهجون المشركين منالفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك : « اجهم ، فالذى نفسى بيده هو أشد عليهم من رشق النبل » وكان يقول لحسان بن ثابت : « قل وروح القدس معك » ، وفى رواية « اجهم وجبريل معك » . وإلى هذا أشار بقوله :

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) .
وروى ابن جرير عن محمد بن إسحق « أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، قالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي صلى الله عليه وسلم : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال أنتم (وذكروا الله كثيرا) قال : أنتم (وانتصروا من بعد ما ظلموا) قال : أنتم أى بالرد على المشركين ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : انتصروا ولا تقولوا إلا حقا ولا تذكروا الآباء والأمهات » ، فقال حسان لأبي سفيان :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه . . . وعبد الله في ذلك الجزاء . . .
 وإن أبي ووالده وعرضي . . . لعرض محمدٍ منكم وقاء . . .
 أتشتمه ولست له بكفء . . . فشر كما تخيركم الفداء . . .
 لسانى صارم لا عيب فيه . . . وبحرى لا تكدره الدلاء . . .

وقال كعب يارسول الله . إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه ، والذي نفسى بيده لكان ما ترمونهم به نضح التبل » ، وقال كعب :
 جاءت سخينة كي تغالب ربها . . . ولْيَقْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْعَلَابِ . . .
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا :
 وبعد أن ذكر سبحانه من الدلائل العقلية وأخبار الأنبياء المتقدمين ما يزيل
 الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين الدلائل على صدق نبوته ،
 ثم أرشد إلى الفارق بينه وبين الكهنة وبينه وبين الشعراء - ختم السورة بالتهديد
 العظيم والوعيد الشديد للكافرين فقال :

(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) أى وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم
 وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات كفرها بها وعنادا - أى مرجع يرجعون إلى الله بعد
 الموت ، وأى معاد يعودون إليه ؟ إنهم ليصيرنَّ إلى نار لا يطفأ سعيها ،
 ولا يسكن لهيبها .

اللهم أبعدنا عن تلك النار وأدخلنا جنتك برحمتك يا أرحم الراحمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِكَلِمَةٍ مِنْهُ هِزْلًا
 وَلَا يَجْعَلُ الْغَيْبَ مُنْتَهَى لِمَنْ عَلِمَ إِنَّ اللَّهَ عَظِيمُ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ يَخْفَى
 عَنِ الْعَيْنِ الَّذِي هُوَ الْغَيْبُ لَا يَلْتَمِسُ لَهُ السَّمْعُ وَلَا الْبَصَرُ وَلَا يَخْفَى عَنِ
 عِلْمِهِ شَيْءٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

(١) مقدمة في تسليمة الرسول صلى الله عليه وسلم عن إعراض قومه عن الدين ، وبيان أنهم ليسوا ببدع في الأمم ، وأنه صلى الله عليه وسلم ليس بأول الرسل الذين كذبوا ، وأن الله قادر على إزلال القوازع التي تلجئهم إلى الإيمان ، ولكن جرت سنته أن يجعل الإيمان في القلوب اختياريا لا اضطراريا .

(٢) الاستدلال بخلق النبات وأطواره المختلفة وأشكاله المنوعة - على وجود الإله ووحدانيته .

(٣) قصص الأنبياء مع أممهم لما فيه من العبرة لأولئك المكذبين .

(٤) إثبات أن القرآن وحى من رب العالمين لا كلام تنزل به الشياطين .

(٥) بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بكاهن ولا شاعر .

(٦) التهديد والوعيد لمن يعبد مع الله سواه من الأصنام والأوثان ، ويكذب

بالرسول والنور الذي أنزل معه .